

الحركة العلمية في مدينة تمبكت خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين

للمأستاذ
عبد الرحمن ميف

بداية الحركة العلمية وازدهارها في تمبكت :

كان للإسلام الفضل الأكبر في نقل اللغة العربية ومختلف علوم الدين إلى أماكن كثيرة في غرب أفريقيا وخاصة مدينة تمبكت التي ارتبطت ولادتها وظهورها بدخول الإسلام في المنطقة مع المرابطين الذين حملوا لواء الإسلام على عاتقهم لتعليم المجتمع السوداني معالم الدين الإسلامي ومبادئه وتعريفهم الآداب الإسلامية وقواعد الدين، وتنظيمهم على أسس جديدة ترسخ العقيدة في نفوس المجتمع. هذه هي بداية تسرب الثقافة الإسلامية إلى السودان الغربي والتي ستصل ذروتها فيما بعد. ويمكن تقسيم المراحل التي عبرت بها الثقافة الإسلامية إلى مجتمع جنوب الصحراء بصفة عامة وإلى المجتمع التمبكتي بصفة خاصة إلى مراحل :

المرحلة الأولى : حمل أعباءها الدعاة وسط القبائل والمساجد في المدن، واستمرت هذه المرحلة إلى أواسط القرن الرابع عشر، وكانت ثمرتها تعليم السواد الأعظم أحكام العبادات والمعاملات والسلوك الديني.

المرحلة الثانية : امتازت بتوثيق عرى الصداقة والأخوة بين المشاركة والمغاربة مع السودانيين، فوفد كثير من العلماء إلى المنطقة فاقتفى أثرهم "المهندسون المعماريون" الذين هم النواة الأولى للفن المعماري العربي في غرب أفريقيا وازدهارها، وخلق "مدرسة" إسلامية سودانية خاصة في مجال العلوم الدينية.

المرحلة الثالثة : تمتاز هذه المرحلة بتوسع مجالات المعرفة وتجاوز الأغراض السابقة لتضيف أغراضا فكرية جديدة أكثر عمقا وإبداعا كالفلسفة والمنطق والتاريخ وآداب الرحلة والإنشاء والشعر، وابتدأت هذه المرحلة مع نهاية القرن السادس عشر⁽¹⁾.

وقد وصلت الثقافة الإسلامية أوجها في تمبكت خلال القرن الخامس عشر والسادس عشر وازدهرت الحركة العلمية فيها في عصر سلاطين مالي وخاصة في عهد منسا موسى وأخيه منسا سليمان اللذين يعد عهدهما عهدا ذهبيا وفتحا مبينا في مجال العلم والتعليم في السودان الغربي. ولما رجع منسا موسى من الحج اصطحب معه مجموعة من علماء المشرق والمغرب إلى السودان الغربي. واشترى كثيرا من أمهات الكتب العلمية في الحجاز والقاهرة ليسهل للحركة العلمية تحقيق هدفها في نقل المعرفة، وتكريس الثقافة العربية الإسلامية نظرا لكونه يتقن العربية قراءة وكتابة وحديثا كما عبر عنها كل من العمري والقلقشندي. وكان أخوه منسا سليمان أيضا مثله في الاهتمام بالثقافة الإسلامية وازدهارها، وعد من فقهاء عصره.

وقد اجتهد السلطان في جعل اللغة العربية الرسمية للدولة في التعليم والدواوين والمكتبات.

ويظل أكبر حدث أثر في تطور الحركة العلمية في المراكز العلمية في السودان الغربي هو البعثة الثقافية التي أرسلها السلطان أبو الحسن المريني إلى المنطقة إثر زيارة الوفد المالي - الذي يحمل رسالة وهدايا إليه - للمغرب. وتضم هذه البعثة مجموعة من العلماء والفقهاء والمهندسين المعماريين.

وبعد بضع سنوات أعطت هذه البعثة ثمارها إذ أدت إلى ظهور نهضة علمية حقيقية تقوم على الثقافة في المراكز العلمية، هذا عن عهد سلاطين مالي⁽²⁾.

(1) انظر محمد الغربي - بداية الحكم المغربي في السودان ص : 510-511.

(2) القلقشندي : صبح الأعشى ص 294-297 ج الخامس / العمري ص 70 وما بعدها، انظر أيضا - محمد الغربي ص 513/ رحلة ابن بطوطة ص 672 - 676 / مجلة الدارة 227 - 228.

أما في زمن ملوك سنغاي وخاصة مع أسكيا محمد وأسكيا داود، فقد ازدادت الحركة العلمية في تمبكت توقدا وتأججا باستقدامهما العلماء من أنحاء العالم الإسلامي، وأجزلوا لهم العطاء وأغدقوا عليهم كثيرا. واعتبر عهدهما أزهى عصور انتشار الثقافة الإسلامية في السودان الغربي وفي تمبكت على الأخص. وبلغت فيها الحركة العلمية أوجها، إذ ضمت في رحابها أكبر علماء العصر. وذاع صيتها في العالم فتوافد إليها طلاب العلم وأهله من كل فج.

هكذا بارك الأساكي الحركة العلمية وشجعوها، واحترموا العلماء وأسقطوا عنهم وظائف السلطنة وغراماتها ومنعوا عنهم ظلم الحكام بحيث كان للأساكي وحدهم حق النظر في أي شكوى ضد عالم أوفقيه.

وكان للعلماء في عصر أسكيا محمد حركة دائبة بين المغرب والمراكز العلمية في السودان وخاصة تمبكت. على أن هذا الانتعاش الذي عرفته الحركة العلمية جعل العلماء ينتجون في حقل الثقافة الإسلامية، فظهرت مؤلفات كبار العلماء التي عدت مصادر أساسية في مجالها. وقد وصف المؤرخون أسكيا محمد بالسهل الجانب الرقيق القلب وخافض الجناح وبأنه كان شديد التعظيم لأئمة الدين والعلم، مكرمالهم غاية الإكرام⁽³⁾.

ووصفوا ابنه أسكيا داود بأنه عالم، فقيه، حافظ لكتاب الله وهو أول من اتخذ خزائن الكتب وله كتاب ينسخون له. قال عنه كعت : «وكان أسكيا داود سلطانا مهيبا، فصيحاً، خليقا للرئاسة، كريما جوادا»⁽⁴⁾.

ويتجلى ازدهار الحركة العلمية بتمبكت في هذه الفترة في كثرة العلماء والقراء وطلاب العلم وكثرة المعاهد والمكاتب للتعليم.

(3) تاريخ الفتاش 59 / السعدي ص 72 / نزهة الهادي ص 89 - 90 / مملكة سنغاي في عهد الأسكيين عبد القادر زبانية ص 71 وما بعدها / الدارة ص 230/228.

(4) تاريخ الفتاش ص 94 / مملكة سنغاي في عهد الأسكيين - عبد القادر زبانية ص 35 / مجلة الدارة ص 228 - 230.

ومن مظاهر الازدهار أيضا أعداد المساجد والجوامع، ووجود المكتبات العامة والخاصة، وكثرة الكتب حتى أنها تعد أغلى السلع في سوق تمبكت مما أدى إلى ملء خزائن المدينة بكل ما كان معروفا من الكتب في مختلف الفنون.

وبعد عهد ملوك السودان جاء الدور المغربي في المنطقة في نهاية القرن السادس عشر فأخذت الحركة العلمية تتجه نحو الأفق في مدينة تمبكت - بعد حادثة السير التي وقعت لها أثناء النكبة - وشرعت في ابتكار فنون وأغراض جديدة لم تكن معروفة من قبل. وتتمثل في فنون أدبية أكثر عمقا وإشراقا وإبداعا كالفلسفة والمنطق والتاريخ وآداب الرحلات والإنشاء والشعر⁽⁵⁾.

هكذا كانت مسيرة الحركة العلمية - في مدينة تمبكت التي كانت كعبة يحج إليها العلماء وطلاب العلم والمعرفة - والتي تحركت صوب أهدافها في نقل المعرفة وتكريس الثقافة الإسلامية في المنطقة، وأبرز رجالها الفقهاء والأدباء والشعراء.

ونخلص إلى القول أن الحركة العلمية بدأت تزدهر في عهد سلاطين مالي، وبلغت عصرها الذهبي في عهد سلاطين سنغاي واتسع أفقها لتحتوي أغراضا جديدة أكثر دقة وإشراقا وإبداعا في بداية العهد المغربي.

أسباب ازدهار الحركة العلمية فيها :

لقد بلغت الثقافة العربية الإسلامية أوجها في القارة الأفريقية خلال القرن الخامس عشر إثر سقوط بغداد على يد المغول، فنزح العلماء من تلك الجهات إلى مصر مع علومهم وفنونهم. وفي المغرب أيضا حدث تطور مهم في مجال الثقافة العربية الإسلامية إذ فر إليها كثير من المثقفين بفنهم وعلمهم وثقافتهم بعد سقوط الأندلس فتركزت فيها الثقافة الإسلامية⁽⁶⁾.

وبما أن مدينة تمبكت تعتبر من أهم المراكز الجذابة في غرب

(5) انظر محمد الغربي : بداية الحكم المغربي في السودان ص : 510 - 511.

(6) حسن أحمد محمود ص 17 - 18.

أفريقيا والأكثر استقبالا للعلماء فقد اتجه بعض العلماء من المشرق والمغرب صوبها، فوجدوا فيها ما كان ينقصهم من العناية والرعاية والإكرام من قبل الأهالي، فسكنوا فيها، واستفادت المدينة من تجاربهم العلمية والفنية، فازدهرت الحركة العلمية ازدهارا كبيرا. ويمكن أن نجل أهم أسبابها فيما يلي :

1 - رعاية الدول المتعاقبة في السودان الغربي للحركة العلمية
في تمبكت، وهذه الرعاية التي تقوم بها الدول للعلماء والعلم تتجلى في مظهرين :

مادي ومعنوي. أما الرعاية المعنوية فلها عدة مظاهر منها :

أ - اهتمام السلاطين بالعلماء واستفتائهم، فقد اتفق جميع المؤرخين أو جلهم على أن سلاطين السودان كانوا يهتمون بالعلماء ويستشيرونهم في كل صغيرة وكبيرة.

فسلاطين مالي عرفوا بشدة عنايتهم بالعلماء حتى أنهم لا يقومون بأي شيء إلا بموافقتهم، بل إن مستشاريهم جلهم من العلماء، ويحظون باحترام كبير لدى السلطان ومن تحته. وقد شهد بهذا جميع الرحالين الذين زاروا المنطقة في عصرهم.

وفي عهد سلاطين صنغاي أيضا ازداد احترام العلماء على ما كان عليه سابقا. فأول ما قام به أسكيا محمد لما وصل الحكم، استدعاء العلماء واستفتائهم واستشارتهم وطلب النصائح منهم قال عنه كعت : «... وله من المناقب من حسن السياسة والرفق بالرعية والتلطف بالمساكين ما لا يحصى ... وحب العلماء ...» (7).

ولما جاء أسكيا داود أيضا سن سنة أبيه أسكيا محمد، وأصبحت سلطة العلماء في عهدهم أقوى من سلطة السلاطين. وقد صرح بهذا أكثر من مؤرخ.

ب - عقد المجالس العلمية، وتعد هذه الظاهرة من أهم عوامل الإزدهار، إذ إن إهتمام السلاطين بعقد المجالس، يشجع العلماء على البحث والتحصيل ثم الابتكار وفي هذا الصدد استدعى أسكيا محمد الشيخ عبد الكريم المغيلي عالم عصره، لإلقاء الدروس في مملكته.

ج - تواضع السلاطين للعلماء، فقد ثبت أن اغلب الملوك كانوا يتواضعون للعلماء ويطيعونهم، حتى إنه إذا تعارض أمر بين العلماء والسلاطين فإنهم يتنازلون عن الأمر إرضاء وطاعة للعلماء.

د - العناية بالطلبة واحترامهم وقد جاء على لسان غير واحد من المؤرخين أن الطلبة كانوا يحظون برعاية تامة وعناية كبيرة من طرف السلاطين ومن تحتهم. فقد ذكر كعت أن أسكيا محمد كان محبا لطلبة العلم ومكرما لهم غاية الإكرام.

هـ - حث العلماء وتشجيعهم على التحصيل، ويظهر هذا في إرسال العلماء إلى دول المغرب والمشرق للزيادة في العلم، والانتفاع بحفايزة العلماء.

و - اقتناء الكتب النفيسة ووضعها رهن إشارتهم ومتناولهم. فقد اشترى منسا موسى أثناء عودته من الحج مجموعة من الكتب في الحجاز والقاهرة، وكون أسكيا داود خزانة من الكتب. هذا بعض ما يمكن ذكره في هذا الجانب. وأما الرعاية المادية فتتجلى في عدة صور نذكر منها :

أ - تقديم الهبات المالية للعلماء : فقد أكد كثير من المؤرخين أن السلاطين كانوا يقدقون على العلماء بدون حساب.

ب - تعيين الأجور للأساتذة ومساعدة الطلبة : لقد بذل السلاطين كل ما لديهم لتعيين دخل شهري أو سنوي للعلماء، وكان القاضي هو المكلف برواتب العلماء ومساعدة الطلبة، وتوفير ما يحتاجون اليه.

ج - بناء المدارس والمساجد : فقد اهتم السلاطين بإنشاء هذه المؤسسات لما لها من دور مهم في مجال العبادات، ونشر العلم.

د - تحبيس الكتب وتكوين المكتبات : لقد عني السلاطين بوقف الكتب ليستفيد منها العلماء والطلبة ويتحقق نسخها وصيانتها من الضياع. فقد كون أسكيا داود خزانة وجعلها وقفا على جامعات تمبكت كما كان له نساخ ينسخون له.

هـ - الأمر بنسخ الكتب فقد كان السلاطين يأخذون نساخين ينسخون لهم وينفقون في ذلك أموالا طائلة.

و - استيراد الكتب من الخارج، إذ إن كثيرا من الكتب لا توجد في المنطقة ولذا يقوم السلاطين باستجلابها وشرائها بثمن باهظ.

2 - إمكانات البلاد الهائلة وظروف التجارة المريحة، وقد عرفت المنطقة عالميا وخاصة مدينة تمبكت بثروتها الطائلة مما جعل العلماء يفتفون أثر التجار.

3 - سيادة الأمن في البلاد وخاصة في تمبكت، حتى إن الإنسان عندما يصل إليها فإنه دخل في بلد الله، لا يعتدي عليه أحد. وفي هذا يقول كعت «... مع الهناء والعافية والأمن الذي خص الله به أهل تمبكت وترى منهم مائة رجل ليس لأحد منهم حريش ولا سيف ولا مدية إلا المنساة»⁽⁸⁾.

4 - كثرة العلماء والفقهاء التجار الذين يأتون إليها للتجارة والتدريس في نفس الوقت.

5 - كثرة الكتب والمخطوطات التي ترد على أسواقها بكمية كبيرة، مما جعل مكتباتها تزخر بكل ما كان معروفا من كتب العلم في مختلف الفنون.

6 - توافد العلماء والطلبة من مختلف الجهات إلى تمبكت وخاصة في عهد الأسكيين، حيث ورد عليها جم غفير من علماء المشرق والمغرب، وعدد كبير من طلبة السودان.

7 - انتشار المكتبات الخاصة التي اقتناها العلماء والأثرياء في تمبكت، وكانوا لا يبخلون على طلاب العلم بشيء منها.

8 - رحلة الطلبة السودانيين إلى الخارج، فقد رحل كثير من الطلبة في السودان وفي تمبكت خاصة إلى المغرب ومصر والحجاز للدراسة، وبعد مدة يرجعون إلى المنطقة - كما يعود النحل محملا بالعسل الشهي - ليعلموا بني جلدتهم.

9 - اجتهاد الطلبة ومثابرتهم في طلب العلم وتحصيله في مراكزه الأصلية مما ساعد على جلب عدد كبير من ذوي العلم والثقافة إلى بلاد السودان وإلى تمبكت بصفة خاصة⁽⁹⁾.

هذه هي بعض العوامل التي تضاعفت وتفاعلت، فأدت إلى ازدهار الحركة العلمية في مدينة تمبكت.

العناصر الثقافية المختلفة التي ساهمت في ازدهارها :

كانت جميع الممالك الإسلامية التي ظهرت في غرب أفريقيا متفتحة على العالم الإسلامي، ووصل هذا التفتح أوجه في مملكة صنغاي وخاصة في عهد الأساكي اللذين فتحوا باب التفتح على مصراعيه للانفتاح على العالم الخارجي مما ساعد أيضا على الانفتاح على الثقافة الإسلامية والاحتكاك بها بشكل كبير فذاعت شهرة المنطقة، فشد العلماء رحالهم وقصدوها من كل حذب وصوب، وخاصة مدينة تمبكت التي عدت مأوى العلماء. وكل هؤلاء العلماء المتوافدون بمختلف جنسياتهم إليها على الرحب والسعة، عملوا بانسجام مع علماء المنطقة على تنشيط حركة فكرية صهرت بوتقتها أخيرا جميع الطاقات. وأهم هذه العناصر العلمية التي ساهمت في تنشيط الحركة العملية بتمبكت ما يلي :

1 - العنصر المغربي :

يمثل المثقفون المغاربة العنصر الغالب في الحركة العلمية بتمبكت نظرا لقربها من المغرب، ولصلات المغرب الثقافية التي تربطها بالسودان وتمبكت على الأخص، منذ وصول المرابطين اللذين تآخمت مضاربهم الأولى المنطقة وأدت حركتهم الإصلاحية في مطلع القرن الخامس الهجري إلى تدفق سيل الإسلام إلى المنطقة.

ومنذ هذا التاريخ فإن العلماء المغاربة يقصدون مدينة تمبكت إما للإقامة بها نهائيا أو مؤقتا، وبذلك شكل العنصر المغربي أهم عناصر ازدهار الحركة العلمية بتمبكت. ولا تزال سلالتهم ساكنة فيها إلى يومنا هذا.

2 - العنصر المحلي :

يمثل العنصر السوداني العنصر الأساس في الحركة العلمية بتمبكت، وقد تكون معظمهم تكويناً محلياً وخاصة في مدينة تمبكت نفسها. كما أن كثيراً من المثقفين رحلوا إلى الخارج، وتعلموا على علماء المشرق والمغرب، ثم عادوا إلى تمبكت يحملون راية العلم وشعلته - كما يعود النحل محملاً بالعسل الشهي - ينشرونه بين أبناء جلدتهم بحماسة متوقدة، وبهذا أصبح هذا العنصر من الدعام الثابتة في الحركة العلمية بتمبكت.

3 - العنصر الأندلسي :

لقد بدأ هذا العنصر يتوافد على المنطقة منذ القديم، وزاد توافدهم عليها وخاصة على تمبكت بعد نكبة الأندلس وسقوطها في أيدي الأوروبيين. وهكذا قدم كثير منهم على مدينة تمبكت، وسكن بعض منهم فيها نهائياً نظراً لاحترام المجتمع للعلماء واستقبالهم بحرارة واستضافتهم استضافة جيدة مما جعل هؤلاء العلماء يخلصون في تدريسهم ونقلهم المعرفة إلى المجتمع، فأحاطهم الطلبة بحفاوة كبيرة واستفادوا منهم كثيراً.

4 - العنصر المشرقي :

لعب هذا العنصر دوراً مهماً في تنشيط الحركة العلمية في مدينة تمبكت نظراً لصلات الثقافة والتجارة القائمة بين المشرق والسودان منذ عصر الممالك في مصر مما جعل علماء يتوافدون إلى المنطقة بطوع إرادتهم أو بطلب السلاطين، اللذين لم يترددوا في تقليد العلماء مناصب مرموقة، مما جعل المنطقة تحظى باهتمام المشاركة، كما أن كثيراً من طلبة السودان وعلمائها رحلوا إلى المشرق للدراسة، مما ساهم في تبادل العلماء بين المنطقتين. وتعد زيارة منسا موسى لمصر أثناء رحلته إلى الحج أكبر حدث أثر في علماء المشرق وتبع ذلك رحيل جملة من علماء مصر إلى تمبكت ورحيل علماء تمبكت إلى مصر⁽¹⁰⁾. هذه هي أهم العناصر التي

لعبت دورا مهما في تثبيت دعائم الثقافة الإسلامية في المنطقة وتنشيط الحركة العلمية بتمبكت.

الجوانب التي ازدهرت فيها الحركة العلمية :

منذ أن عرفت مدينة تمبكت عرفت بأنها إسلامية النشأة. وهي التي ساهمت في استقرار الثقافة الإسلامية في السودان الغربي، ولذلك فإن أهلها منذ أن وصلت إليهم الثقافة الإسلامية، ما فتئوا يقبلون عليها بشغف كبير حتى وصلت أوجها في تمبكت، وبلغت الحركة العلمية مرحلتها الذهبية خلال القرن التاسع والعاشر الهجريين، في ميادين كثيرة إلا أن أهم الجوانب التي ازدهرت فيها الحركة العلمية تتجلى في :

1 - العلوم الدينية واللغوية : تعتبر العلوم الشرعية واللغوية من أهم الجوانب التي ازدهرت فيها الحركة العلمية بمدينة تمبكت، نظرا لما لها من مركز مرموق في نفس المجتمع. ومن تتبع تراجم علماء تمبكت الذين تحدث عنهم أحمد بابا في كتابه "نيل الابتهاج"، والسعدي في كتابه "تاريخ السودان"، فإنه سيجد أن هؤلاء العلماء كانوا متضلعين في الفقه. - وخاصة الفقه المالكي - والحديث وغيرهما من العلوم الشرعية.

لكن هذا الازدهار في ميدان العلوم الشرعية لم يترجم إلى أرض الواقع. إذ نجد أن العلماء اعتكفوا على مؤلفات القدامى دون أن ينتجوا شيئا جديدا أو يبتكروه، أو يضيفوا إليها ما يستحق الذكر. وما أنتجوه في هذا الميدان لا يعدو أن يكون شرحا لكتاب أو حاشية لمصنف أو نظما في قالب رجزي لمصنف من المصنفات التي كتبها المغاربة أو المشاركة، أو تفسيراً لجزء من القرآن يعتمد فيه صاحبه على شرح لعالم آخر خارج السودان، هذا على العموم (11).

أما في ميدان اللغة فقد تحدث كل من أحمد بابا والسعدي عن كثير من العلماء في تراجمهم وصفوا بعلو الكعب في علوم اللغة وفقهاها والنحو وأسرار البيان. فقد اهتم العلماء بعلوم اللغة وخاصة

النحو والصرف منها لأنها تعتبر الآليات الأساسية في فهم الشريعة ومقاصدها، ولذا انكب العلماء والطلبة على دراستها بحماسة ذكية، لمعرفتها معرفة تامة.

ولا غرو في اهتمامهم باللغة لأنها مفتاح أساسي للوقوف على أسرار مصادر الشريعة الإسلامية، والغوص في عمقها واكتشاف دررها. ولهذا قال ابن فارس: «العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة والفتيا بسبب، حتى لا غناء بأحد منهم عنه، وذلك أن القرآن نزل بلغة العرب ورسول الله ﷺ عربي، فمن أراد معرفة كتاب الله - عز وجل - وما في سنة رسول الله ﷺ من كل غريبة أو نظم عجيب لم يجد من العلم باللغة بدا» (12).

وقد ذهب البعض إلى أن حب السودانيين لدراسة النحو، ورثوها عن المغاربة الذين اشتهروا بحب النحو والصرف (13).

على أن هذا الاقبال الشديد على دراسة اللغة وخاصة النحو والصرف منها لم يدفع العلماء إلى الابتكار والانتاج، بل ساهم في تقليد القدامى والأخذ بما انتجوه.

ولعل هذا التقليد راجع إلى الحرص على المحافظة على اللغة كما جاءت عن أصحابها والخوف من التحريف والخشية من ولوج ما يحمل على المواخذة والتعنيف، هذا من جهة. وهناك أيضا احترام أقوال العلماء القدماء إلى حد التقديس، وإن اللغة ميدانهم لا يزاحمون فيها، وإن الخروج عن مؤلفاتهم يعد انتهاكا لحرمتهم، وإن من جاء بعدهم عالة عليهم.

وعلاوة على هذا سيطر التقليد على أذهان العلماء بله العامة في تلك الفترة، مما أدى إلى الجمود على مؤلفات القدامى ومن ثم التعصب لها وتقليدها، وعدم السماح بالخروج عنها. وعلى أي حال فأغلب ما ألف في هذا الميدان لا يرقى إلى درجة التأليف الحقيقي الذي تلمس فيه الجدة والابتكار.

(12) مصطلح الحديث وأثره على الدرس اللغوي عند العرب : د. شرف الدين علي الراجحي ص: 15
نقلا عن ابن فارس الصباحي : فقه اللغة وسنن العرب في كلامها تحقيق د. مصطفى الشريحي ص: 64.

(13) أفريقيا في ظل الإسلام : نعيم قداح : ص 145.

2 - الآداب وفن الكتابة :

لما كان الأدب من الوسائل التي تساعد على فهم مقاصد الشريعة أو أسرارها فإن العلماء قد أعتنوا به كثيرا، سواء المنظوم منه أو المنثور ونجد أن كثيرا من العلماء والطلبة يحفظون دواوين الشعراء ويستشهدون بأشعار وكتابات الشعراء العرب، محاولين بهذا أن يقلدوا الأدباء والنقاد القدامى في نظم الشعر وكتابة النثر، فتركوا جملة من القصائد لم يصل إلينا أغلبها، وإن كانت لا تشكل عملا رفيعا في هذا الميدان لأن أغلب من نظم هذه القصائد فقهاء عرفوا في مجال الفقه أكثر من ميدان الأدب، لذا جاء عملهم مهلهلا خاليا من الإبداع الفني والجمال الأدبي، ويؤكد هذا أن القصائد التي وصلت إلينا كلها نظمت من طرف الفقهاء. ومن هذه القصائد قصيدة احمد بابا عند ما كان في المنفى ومطلعها :

أيا قاصد كاغوا فمعج نحو بلدي * وزمزم لهم باسمي وبلغ احبتي
سلاما عطيرا من غريب وشائق * إلى وطن الأحباب رمطى وجيرتي (14)
وقصيدة يحيى التادلسي وهو يرثى محمد سميدع، أحد العلماء البارزين في تمبكت إذ جاء فيها :

أطلاب علم الفقه تدرون ما الذي * يثير هموم القلب من كل وافد
يثير هموم القلب فقد سميدع * فقيه حليم حامل للفرائد (15)

وإضافة إلى هذا هناك إشارات أخرى حول قصص كتبت على غرار خرافات عهد الانحطاط العباسي والأندلسي، أو على شاكلة المقامات، لكن ضياع هذا الإنتاج وعبث الأيدي به لم يتيح لنا فرصة لفحصه وقراءته قراءة جديدة متأنية، ومن ثم تقييمه والحكم عليه أولاً.

(14) انظر : نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي : محد الصغير الوافرائي : ص 98 وانظر أيضا : مملكة صنفاء في عهد الأسكين ص 158.

(15) السعدي ص 36 / مملكة صنفائي في عهد الأسكين : ص 149.

أما أسلوب الكتابة فقد عرف تطوراً مهماً في هذا العصر، حيث نجد أن كثيراً من العلماء عبروا عن أفكارهم بأسلوب عربي سليم بشكل عام، وإن كان بعضهم اهتم بتوصيل الفكرة وتوضيحها أكثر من ترصيع الأسلوب وطرزه، مما جعلهم لا يتحرجون في استعمال الدارجة أو جمل ملتوية، أو كلمات غير عربية ليفهم المتلقي.

ومن الذين وصلت إلينا كتاباتهم : محمود كعت صاحب تاريخ الفتاش، وسلطان العلماء في السودان الغربي أحمد بابا وعبد الرحمان السعدي الذي جاء في مقدمة كتابه تاريخ السودان : «ولما رأيت انقراض ذلك العلم ودروسه، وذهاب ديناره وفلوسه وأنه كبير الفوائد كثير الفرائد لما فيه من معرفة المرء أخبار وطنه وأسلافه وطبقاتهم وتواريخهم ووفياتهم، فاستعنت بالله سبحانه في كتب ما رأيت من ذكر ملوك السودان أهل سنغاي وقصصهم وأخبارهم وسيرهم وغزواتهم، وذكر تمبكت ونشأتها، ومن ملكها من الملوك، وذكر بعض العلماء والصالحين الذين توطئوها وغير ذلك إلى آخر الدولة الأحمدية الهاشمية العباسية، سلطان مدينة الحمراء مراکش.» (16).

هل هناك أسلوب أروع من هذا الأسلوب؟! وخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن صاحبه ليس بعربي وإنما هو سوداني اجتهد في دراسة العربية. وقد وصل فن الكتابة أوجه مع أحمد بابا سلطان العلماء، الذي امتاز أسلوبه بالمتانة والجزالة والموضوعية العلمية والتمكن من المفردات. (17).

3 - التاريخ والتراجم :

لما كان التاريخ من أهم الوسائل التي يعرف بها الخلف أحداث أسلافهم وأجدادهم، فإنه حظي بعناية كبيرة من طرف السودانيين. وقد ازدهر هذا الفن في تمبكت خلال العصر الذي

(16) السعدي : تاريخ السودان : ص 2.

(17) مملكة سنغاي في عهد الأسكيين : ص 155 - 158 / محمد الغربي : بداية الحكم المغربي في السودان ص 542-545.

ندرسه أيما ازدهار، إذ نجد بعض الكتاب استطاع أن يسجل كثيرا من الأحداث في المنطقة وصاغها في قالب فني جميل، فجاء إنتاجه رائعا رائقا في تغطية الحوادث بشكل عام.

وقد عدت المؤلفات في هذا الميدان من أهم المصادر المعتمدة والأساسية التي لا غنى عنها لأي باحث في معرفة تاريخ المنطقة.

وأهم ما ألف في هذا المجال : تاريخ الفتاش لمحمود كعت، وتاريخ السودان لعبد الرحمان السعدي. أما التراجع فقد حظيت هي أيضا باهتمام كبير من طرف الفقهاء والكتاب نظرا لاهتمامهم بتراجم الملوك والرؤساء والقضاة والفقهاء (18).

وقد برع العلماء في هذا المجال وابتكروا فيه أيما ابتكار وخاصة في تراجم العلماء وانتجوا فيه مؤلفات نفيسة عدت من أهم المصادر الأساسية في معرفة علماء السودان.

ومن أنفس ما كتب في هذا المجال : نيل الابتهاج وكفاية المحتاج لأحمد بابا التمبكتي، وتاريخ السودان لعبد الرحمان السعدي. ومما لا ريب فيه أن هناك جوانب أخرى غير ما ذكرنا، ازدهرت فيها الحركة العلمية مثل علم الفلك، وخاصة إذا أدركنا مدى اهتمام الناس به لحاجتهم إليه أثناء السفر، وغيره كثير.

وهكذا يتبين لنا من خلال هذا العرض المتواضع أن الحركة العلمية في تمبكت ازدهرت في كل من العلوم الشرعية واللغوية والآداب وأسلوب الكتابة، نتيجة الاهتمام بها لكنه لم تترجم في أرض الواقع، وبقي العلماء أسارى تحت وطأة التقليد دون الابتكار والإبداع. أما في مجال التاريخ والتراجم فإن ازدهارهما ترجم في حيز الواقع وتحرر من ربة التقليد وسلطته، حيث ألف العلماء في هذا المجال مؤلفات مهمة جدا عدت من المصادر الأساسية التي لا غنى عنها لأي باحث.

وخلاصة القول أن مدية تمبكت منذ أن وصلت إليها الثقافة الإسلامية فإن علماءها أقبلوا عليها إقبال الصدى على الماء ينهلون

(18) انظر : مملكة صنهايا في عهد الأسكين ص 159-163/ بداية الحكم المغربي في السودان ص 537-539.

من معينها، فازدهرت الحركة العلمية ازدهارا كبيرا، نتيجة رعاية الدول المتعاقبة على المنطقة لها، يليها استتباب الأمن والرخاء اللذان حظيت بهما تمبكت في عهد الأساكي، وأخيرا انتشار المكتبات الخاصة التي اقتناها العلماء والأثرياء. كل هذه العوامل وغيرها جعلت مدينة تمبكت كعبة حج إليها طلاب وعلماء من جنسيات مختلفة عملوا معا في تنشيط حركة علمية صهرت في بوتقتها أخيرا جميع الطاقات.

وقد تجسدت ثمرة اجتهاد العلماء في ازدهار الحركة العلمية في قالب فني رائع ظهرت أساسا في العلوم الشرعية واللغوية والآداب وفن الكتابة، وابتكروا فيها ابتكارا رائعا رائقا ومتفتقا. وبعد هذه النظرة عن الحركة العلمية يمكن الكلام عن التعليم.

اعتنى مجتمع السودان بالتعليم منذ أن وصل إليه الإسلام، وخاصة التعليم القرآني لأنه أساس التعليم وقاعدته، ولهذا أقبلوا عليه منذ البداية وأجبروا أطفالهم عليه، وقد شهد بهذا الرحالة ابن بطوطة بقوله: «... عنايتهم - أي المجتمع السوداني - بحفظ القرآن، وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه»⁽¹⁹⁾.

وهكذا أقبل المجتمع السوداني على التعليم بحماس كبير، وحظي باهتمام وعناية كبيرين في مدن السودان وخاصة تمبكت، نظرا لما كان لطالب العلم من مكانة مرموقة في المجتمع بعد تحصيله، ولارتباطه بالمقومات الدينية، ولما كان يتمتع به العالم من تقدير من الحكام وتقديس من العامة⁽²⁰⁾. وقد حظيت مدينة تمبكت وجامعاتها بشهرة واسعة مثلما للمراكز العلمية الأخرى في العالم الإسلامي. وتميز التعليم فيها بالتنوع في المواد الدراسية، وهيمنة العلوم النقلية على العلوم الأخرى، وغلب عليه بشكل عام طابع الاختصار والحفظ.

(19) ابن بطوطة الرحلة : ص 672.

(20) محمد الغربي : بداية الحكم المغربي في السودان : ص 546-547.

الطابع العام :

كانت مدينة تمبكت من أهم مدن السودان التي اهتم أهلها بالتعليم وبذلوا فيه النادر والنفيس. فاشتهرت جامعاتها في العالم الإسلامي وقصدها العلماء والطلبة حتى أصبحت تعج بأهل العلم وطلابه. وبلغ عدد الطلبة ما يقرب من خمسة وعشرين ألف طالب. ونظرا لما كان سائدا في الغرب الإسلامي آنذاك من طابع الاختصار والحفظ فإنهما تركا بصمات واضحة على التعليم في مدينة تمبكت وغلبا عليه.

1 - الاختصار :

لقد تميز التعليم في هذا العصر بطابع الاختصار لغلبة كتب المختصرات على الأمهات في الكتب المدرسية، ويرجع الاهتمام بالكتب المختصرات على غيرها في التعليم إلى فتور العزائم والهمم لدى الطلبة من جهة وقصور الفقهاء عن الابتكار والإبداع، ولهذا ركنوا إلى الخمول الفكري واقتصروا على ما وجدوه مدونا لدى الأقدمين مكتفين به. وبذلك سيطر الاختصار على التعليم على أن المختصرات الفقهية في المذهب المالكي بدأت تظهر إلى الوجود منذ أوائل القرن الثالث الهجري وازدادت انتشارا في القرن الرابع الهجري ثم تضخم حجمها بشكل لافت للنظر في القرن السابع، فكثرت كتب المختصرات، وفضلها السواد الأعظم من المشتغلين بالعلم على غيرها من الكتب. ويعزى ظهور كتب المختصرات بهذا الشكل، ومن ثم سيطرتها على التعليم، وركوب الناس هذا المهيح، إلى أن المتأخرين صعب عليهم استيعاب المؤلفات المطولة، وشق عليهم حفظها واستقصاؤها، فاستعاضوا عنها كتباً مختصرة، تيسيرا على المبتدئين وتسهيلا للحفظ على المتعلمين (21).

ورغم ما كان للاختصار من آثار وخيمة ونتائج سيئة على الفقه المالكي فإن كثيرا من العلماء والطلبة أقبلوا عليه إقبال الصدى على الماء. بل وأكثر من هذا هناك من يرى أن الاختصار هو

(21) انظر الجبدي : مباحث في المذهب المالكي ص 87 - 92.

الصواب لتسهيل العلوم وبسطها للطلبة، فنظم أبياتا يشيد به، كما فعل ابن البناء المراكشي فقال :

قصت إلى الإجازة في كلامي * لعلمي بالصواب في الاختصار
ولم احذر فهمي دون فهمي * ولكن خفت إزاء الكبار
فشأن فحولة العلماء شئني * وشأن البسط تعليم الصغار (22)

2 - الحفظ :

كانت من نتائج غلبة الاختصار على التعليم تفشي ظاهرة الحفظ فيه. لأن سبب الاختصار هو تيسير الحفظ للطلبة، واستيعاب الكتب المطولة. ولهذا ظل الحفظ طاغيا على التعليم في تمبكت، بل إن الحفظ يعتبر من السمات الأساسية التي تميز بها المجتهد عن غيره في هذا العصر. فالطفل يبدأ الحفظ منذ نعومة أظفاره، بحفظ الحروف الهجائية في الأغلب الأعم قبل أن يتعرف على أشكالها في الألواح ثم يحفظ فاتحة الكتاب فسورة الناس إلخ.

ولا يزال الطلبة يتابعون حفظ القرآن من الأسفل إلى الأعلى حتى يحفظوا القرآن كله أو جزءا كبيرا منه عن ظهر قلب مع تكرار الختمات.

وقد يحفظ الطالب القرآن كله أو جزءا كبيرا منه دون أن يعرف شيئا عن أشكال الحروف الهجائية، مما يؤكد سيطرة الحفظ على التعليم. وقد استمرت هذه الظاهرة إلى يومنا هذا في بعض المناطق.

فالحفظ يظل مهيمنا حتى في مرحلة المراهقة حيث يتعين على الطالب أن يحفظ أمهات الكتب والمآثور بالإضافة إلى حفظ الشواهد والأبيات التي يستشهد بها في اللغة والنحو والصرف وغيرها. على أنه يتعين على الطالب الذي يريد أن يحظى باحترام أساتذته وأصدقائه أن ينقش في ذاكرته كل مسألة تعلمها، نصا وشاهدا يؤيد أنه حفظ، وإلا تعرض للسخرية من طرف اصدقائه وأساتذته. بل اطلق على من لم يحفظ دروسه يوم الأربعاء - وهو آخر أيام الدراسة - " ضبع الأربعاء".

كما أطلق على قبيلة جلاذ من الطوارق الذين عرفوا بسوء الحفظ عبارة "جلاذ علماء النهار وجهال الليل" وهذه العبارة معروفة إلى وقت قريب.

وفي هذا الصدد عرف في المغرب عبارة «من لا يحفظ النص فهو لص» وعبارة «من حفظ حجة على من لم يحفظ».

وعلى العموم فإن الحفظ يعد معيارا أساسيا للتمييز بين المجتهد والبليد. ويستمر حتى المرحلة النهائية من الدراسة، ولهذا لانعجب اذا رأينا من يستظهر مختصر خليل، ودواوين فحول الشعراء. بل منهم من يحفظ صحيح البخاري ومسلم وموطأ مالك ومدونة سحنون وغيرها من المؤلفات التي تشكل العمود الفقري في الفقه المالكي عن ظهر قلب.

وهذه الظاهرة مميزة ورثتها الحركة التعليمية بتمبكت عن المدرسة المغربية التي كانت تولي جانب الحفظ والاستظهار للمادة العلمية عناية أكبر من جانب التحصيل والتعمق في البحث وقوة التصرف كما يرى ابن خلدون⁽²³⁾.

ومن هنا لا نستغرب سيطرة الحفظ على التعليم في تمبكت، خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار، أن التعليم في مدينة تمبكت والمغرب وجهان لعملة واحدة لا يمكن الفصل بينهما، نظرا لأن الأساتذة أغلبهم من المغرب، والكتب أيضا نفس الكتب المتداولة في المغرب كما أن المنهج أيضا نفس المنهج المطبق في المغرب ...

على أن الاهتمام بالحفظ وخاصة في المراحل الأولى له دور هام في تكوين الطالب تكوينا جيدا، كما أن الهدف منه أيضا عدم حرمان النشأ من حفظ كتاب الله، وهو عادة لا يحفظ إلا في مرحلة مبكرة أعني في حداثة السن.

لكن الاهتمام بالحفظ دون الاعتناء بالتحصيل والتعمق في البحث وخاصة في المراحل العليا، ليس من المحبذ، لما له من عواقب وخيمة ونتائج سيئة. وهذا ما أكده ابن خلدون، حين نعت المغاربة

(23) انظر ابن خلدون : المقدمة ج 3 ص 1021/ انظر أيضا : عمر الجبدي : مباحث في المذهب المالكي بالمغرب ص 173-177.

بالحفظ دون غيره فقال: «... فتجد طالب العلم منهم بعد زهاب كثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون، وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة، فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم. ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل تجد ملكته قاصرة في علمه التصرف في العلم والتعليم ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل تجد ملكته قاصرة في علمه إن فاض أو ناظر أو علم، وما أتاها القصور إلا من قبل التعليم وانقطاع سنده، وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم، لشدة عنايتهم به، وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية وليس كذلك» (24).

مراحل التعليم :

عرفت مدينة تمبكت خلال القرن التاسع والعاشر الهجريين حركة علمية مزدهرة فقصدها العلماء والطلبة من كل مكان ووصل التعليم مرحلته الذهبية فيها، وأضحى منظما كما في المدن الإسلامية الأخرى. ونتيجة لهذا التنظيم فإن الطالب قبل أن يتخرج أو يحصل على الإجازة لا بد أن يمر بمراحل ؛ وهذه المراحل هي :

1 - مرحلة التعليم الأساسي أو الابتدائي : وفي هذه المرحلة

يتعلم الطالب مبادئ القراءة والكتابة ويحفظ بعد السور من القرآن، ويتعلم بعض الفرائض والسنن والمستحبات التي تمكنه من أداء الصلاة. وهذه المرحلة يدخل فيها الطلبة في سن مبكر على العموم، وتتميز بكثرة طلابها وأماكنها. وقد صور لنا محمود كعت على لسان شيخه كثرة مدارس هذه المرحلة لما زار إحدى المدارس بمدينة تمبكت، ووجد عدد الطلبة فيها مرتقعا حتى تخيل له - لما رأى عدد الألواح الخشبية التي يقرأ عليها الطلبة - أن القرآن كله مكتوب على هذه الألواح. ثم وصف ما كان يتبرع به الطلبة للمعلم في كل أربعاء. فقال : « وفيها - أي تمبكت - مدارس معلم الصبيان الذين يقرئون القرآن مائة وخمسين أو ثمانين مكتبا على ما ذكره الشيخ محمد بن أحمد، ذكر أنه حضر مكتب المعلم علي تكريا يوم الأربعاء بعد صلاة الظهر، وجعل صبيانه يأتون بخمس ودعات

وبعضهم عشر ودعات على عادتهم المسماة الأربع حتى تحصل قدامه ألف وسبعمائة وخمسة وعشرون ودعا (1725)، قال الرواي : سرحت نظري إلى الواح الصبيان المتخذة في عرصة داره وعددت منها مائة وثلاثة وعشرين (123) لوحة، وظننت أن تكون جملة القرآن محصلة في تلكم الألواح (25).

2 - مرحلة التعليم المتوسط :

وهذه المرحلة يبدأها الطالب بعد معرفة المبادئ الأساسية في التعليم الأساسي، واستيعاب مجموعة من الدروس التي تعلمها من حفظ ومعرفة.

وفي هذه المرحلة يستعد الطالب لحفظ القرآن كله أو جزء كبير منه، ثم يتصدى لدراسة متون الكتب المعروفة، التي تعد مفاتيح أساسية لدراسة وفهم أمهات الكتب الفقهية في المذهب المالكي وغيرها من الكتب اللغوية والحديثية.

على أن تجاوز هاتين المرحلتين إلى المرحلة الموالية لا يتوقف على سن معين وإنما يرتبط باجتهاد الطالب وذكاؤه ونجابهته وسرعة إداركه وفهمه.

3 - مرحلة التعليم العالي :

وهذه المرحلة من أعلى المراحل وأصعبها، يدخل فيها بعض المعلمين الذين يدرسون الطلبة أو "الاساتذة المساعدون" في المراحل السابقة، وبعض الطلبة الذين بدت عليهم النجاسة وسرعة الفهم والإدراك، ويتخصص "فيها الطلبة في بعض الفنون، ويختمون كل الأمهات والشروح، أو أغلبها، ويتعين على الطالب في هذه المرحلة أن يعرف كل جزئية صغيرة وكبيرة فيما درس حفظا وفهما، ويجب أن يكون الطالب فيها متضلعا في جميع العلوم التي تناولها، وحافظا لكل ما درس من المتون والشروح.

ويظهر تمكن الطالب وإداركه وقوة فهمه لما درس في تكرار

(25) انظر كعت : ص 180-181/ انظر ايضا عبد القادر زبائية ص 141-142 وانظر ايضا محمد الغربي ص 549.

الختمات للكتب، وسرعة جوابه وفطنته لما يلقي إليه من الأسئلة من طرف أساتذته. كما يظهر أيضا في دقة جوابه عن المسائل التي يطلب منه حلها. هذه المراحل كلها تتم في الكتابات والمساجد والجوامع بمدينة تمبكت، بشكل عام.

والى جانب هذه المراحل الدراسية مرحلة أخرى، يلتحق بها في الغالب الذين لم يتمكنوا من المتابعة في المراحل السابقة وهي :

4 - مرحلة التكوين المهني :

ويمكن أن نضيف هذه المرحلة إلى السابقة، وقد أشار إليها بعض المؤرخين. وتهدف هذه المرحلة إلى تكوين الطالب تكوينا مهنيا وتعريفه كيفية صنع الأدوات والأشياء بمختلف أنواعها.

ويدخل فيها الصغير والكبير، وكل من يريد أن يتعلم الحرف اليدوية. ويتخرجون كنجارين وحدادين وبنائين ونساجين ... وهي مرحلة يتعلم فيها الطلبة بشكل حر، لا يتقيدون بقيود مثل المراحل السابقة.

وبراعة الطالب وجودة أعماله وإتقانه في كثرة الممارسة لما يطلب منه من العمل. كما يلمس أيضا في دقة ملاحظاته وتصنيعه للأشياء، وقدرته على الابتكار والاختراع.

وهي مرحلة تحتاج إلى قوة الملاحظة والممارسة أكثر من الحفظ. وقد ارتفع عدد الأماكن التي يمارس فيها التكوين، وخاصة في عهد المغاربة الذين أدخلوا في الصناعات اليدوية عدة أشياء لم تكن معروفة سابقا.

ونستشف هذا من قول محمود كعت : « ... وأخبرني محمد بن المولود أنه رأى منها - أي تمبكت - ستة وعشرين بيتا من بيوت الخياطين المسماة بتند، ولكل واحد من تلك البيوت شيخ رئيس معلم وعنده من المتعلمين نحو خمسين وعند بعضهم نحو سبعين إلى مائة... » (26).

(26) تاريخ الفتاش : كعت ص 180/ انظر أيضا : مملكة صنها في عهد الأسكيين : عبد القادر زيادية ص 141-142 وانظر أيضا : محمد الغربي : بداية الحكم المغربي في السودان الغربي ص : 549-553.

مراكز التعليم :

أضحت مدينة تمبكت خلال القرن التاسع والعاشر الهجريين من أهم المدن المشهورة في غرب أفريقيا تجاريا وثقافيا فتألق نجمها، فاتجه صوبها العلماء والطلبة في كافة أرجاء العالم الإسلامي للإقامة بها مؤقتا أو نهائيا. فانتعشت فيها الحركة العلمية انتعاشا كبيرا وبلغت الحركة التعليمية فيها أوجها. وأهم المراكز التي قامت بأعباء التعليم ونشره في تمبكت المساجد والكتاتيب القرآنية والمكتبات ودور العلماء.

1 - المساجد :

تعد المساجد من أهم المراكز التي تولت نشر الإسلام وثقافته في غرب أفريقيا، وخاصة في مدينة تمبكت. ويأتي على رأس هذه المساجد.

أ - المسجد الجامع الكبير المعروف بجنغري بير :

يعتبر هذا المسجد الجامع من أقدم المساجد وأكبرها والتي قامت بنشر الإسلام وثقافته في تمبكت. ويبدو أن تاريخ بنائه يرجع إلى القرن الثاني عشر الميلادي.

وأعاد بناءه وتجديده المهندس الشاعر الأندلسي المشهور أبو إسحاق إبراهيم الساحلي المعروف "بالطويجن"، الذي اصطحب منسا موسى أثناء عودته من الحج إلى غرب أفريقيا، وذلك بأمر السلطان منسا موسى.

وقد تعرض هذا المسجد إلى عدة إصلاحات من طرف الحكومات التي تعاقبت على المنطقة، خلال تاريخه الطويل. ولا يزال قائما إلى يومنا هذا، وهو من أهم الآثار الإسلامية التي بقيت في تاريخ تمبكت (27).

ب - مسجد سنكري :

يعتبر هذا المسجد من أعظم المساجد التي نهضت بدور

(27) انظر السعدي ص : 56-57/ وانظر أيضا د. مهدي رزق الله أحمد : التربية العربية الإسلامية: المؤسسات والممارسات "تاريخ التعليم الإسلامي في غرب أفريقيا قبل الاستعمار" ص 1279-1280 / انظر زيادة : ص : 104.

التعليم في مدينة تمبكت. وتعرض لعدة إصلاحات خلال تاريخه الطويل. وقيل إن أول من بناه سيدة ثرية، ثم قام ببناؤه وتجديده القاضي العاقب، وأكمل بناءه الملك أسكيا داود في أواسط القرن العاشر الهجري. وكان التعليم فيه على مستوى عال، وتدرس فيه المواد بشكل تخصصي وتتناول بتفصيلات واسعة، وتناقش المسائل فيه على مستوى أمهات المؤلفات. ولا يدرس فيه إلا "الدكاترة" إن صح التعبير، لأن الأساتذة الذين يدرسون فيه متضلعون في فنونهم، يحيطون بكل الجزئيات في المواضيع التي يدرسونها. وهو يشبه الأزهر في القاهرة والقيروان في تونس والقرويين بفاس (28).

ج - مسجد سيدي يحيى :

وهذا المسجد أيضا لا يقل دوره في التعليم عن دور المساجد السابقة وهناك مساجد أخرى أصغر من هذه المساجد الثلاثة مثل :

د - مسجد خالد

هـ - مسجد القصبة

و - مسجد التواتين

ز - مسجد الهناء

ح - مسجد تندرما

ط - مسجد كبير

كل هذه المساجد وغيرها لعبت دورا مهما في تنشيط الحركة العلمية، وكانت هي المراكز الأساسية التي يتم فيها التدريس والحلقات العلمية، والمناقشات الفقهية بمدينة تمبكت.

2 - الكتابات :

تعتبر الكتابات من أهم المراكز التي تقوم بتعليم الأطفال وتربيتهم ويتعلم فيها الطفل المبادئ الأساسية للمراحل الموالية، من القراءة والكتابة وحفظ بعض السور عن ظهر قلب.

(28) مهدي رزق الله أحمد : ص 1279-1280 / السعدي ص، 26 / كمت 161 / زيادة ص 104 / وانظر أيضا : نقولا زيادة : أفريقيات، دراسات في المغرب العربي والسودان الغربي ص : 350.

ويكون التركيز أساسا في هذه المرحلة على تعليم القرآن وتحفيظه للطفل قبل كل شيء.

وقد أشار ابن خلدون إلى أهمية تعليم الصغار القرآن، وما ينتج عنه من آثار حميدة، بقوله : «اعلم أن تعليم الولدان القرآن شعار من شعائر الدين، أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث. وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبنى عليه ما يحصل به من الملكات. وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخا وهو أصل لما بعده لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال ما يبنى عليه ...» (29).

ولهذا اهتم المجتمع السوداني بتعليم الصغار القرآن وخاصة في مدينة تمبكت، وقد وصل عدد الكُتاتيب فيها إلى مائة وخمسين أو ثمانين مكتبا على ما ذكره محمود كعت في حديثه عن الكُتاتيب في مدينة تمبكت فقال : «... وفيها مدارس تعلم الصبيان اللذين يقرأون القرآن مائة وخمسين أو ثمانين مكتبا على ما ذكره الشيخ محمد بن أحمد ...» (30).

وهذا يدل على ازدهار التعليم في مدينة تمبكت وارتفاع عدد الكُتاتيب التي يفهم منها اهتمام المجتمع بتربية الأطفال تربية إسلامية، وتعليمهم في سن مبكر. كما يدل النص على الدور الذي لعبته الكُتاتيب في التعليم بتمبكت.

3 - المكتبات :

لما كانت المكتبات من أهم المؤشرات التي يعرف بها اهتمام المجتمع بالعلم، فقد اعتنى علماء تمبكت وحكامها بتكوين مكتبات علمية قامت بدور فعال في نشر العلم والثقافة لا يقل عن دور المساجد والمدارس في النهضة العلمية، لأن الكتب لم تكن سهلة المنال وكانت تصرف فيها أموال طائلة.

(29) ابن خلدون : المقدمة، ج 3 ص 1239.

(30) محمود كعت : ص 180 / وانظر ايضا مهدي رزق الله احمد ص : 1283 / انظر ايضا عبد القادر زبادة : ص : 143.

وقد عرفت تمبكت بتجارة الكتب والمخطوطات حتى عدت من أغلى السلع وأرباحها في السوق نظرا لإقبال أهل العلم عليها، فكونوا بذلك مكتبات في بيوتهم ملأوها بكل أنواع الكتب والمخطوطات المجلوبة من المشرق والمغرب. وقد كثرت في تمبكت المكتبات الخاصة، وهي أقدم المؤسسات على الإطلاق حيث كان الملوك والأثرياء والعلماء يهتمون بإيجاد مكتبات خاصة بهم ولاستعمالاتهم الخاصة، كما يعينون بها الطلبة والمحتاجين إرواء لظمأهم الفكري.

وأهم المكتبات الخاصة في تمبكت مكتبة آل أقيت، الذين عرفوا بالعلم واقتناء الكتب واستنساخها حتى ملأوا خزانتهم بكل الكتب النفيسة.

وعلى رأس مكتبة آل أقيت مكتبة والد أحمد بابا، فقد كان «وافر الخزانة محتوية على كل علق نفيس سموحا بإعارتها». (31).

ويبدو أن مكتبة آل أقيت كبيرة جدا، حيث ذكر أحمد بابا بأن مكتبته الشخصية كانت تضم ألفا وستمئة (1600) مجلد وهو أقل عشيرته كتباً، وذلك من قوله: «أنا أقل عشيرتي كتباً، وذهبت لي ست عشر مائة مجلد». (32).

ومن المكتبات الخاصة في تمبكت مكتبة أسرة بغيع، وأعظم مكتباتها مكتبة محمد بن محمود شيخ أحمد بابا الذي قال عنه: «بذل نفائس الكتب الغريبة العزيزة لهم، ولا يفتش بعد ذلك عنها كائناً ما كان من جميع الفنون، فضاع له بذلك جملة من كتبه - نفعه الله بذلك - وربما يأتي لبابه طالب يطلب كتاباً ويعطيه له من غير معرفته من هو، فكان العجب العجاب في ذلك إيثاراً لوجهه تعالى مع محبته للكتب وتحصيلها شراء ونسخاً، وقد جئته يوماً

(31) نيل الابتهاج بتطريز الديباج ص: 90-93/ السعدي: 42/ انظر ايضاً محمد حجي: الحركة الفكرية في عهد السعديين ج 1 ص 194.

(32) انظر ايضاً مملكة صنفائي - زبانية ص 139/ فتح الشكور ص 31-37 وانظر ايضاً محمد حجي - الحركة الفكرية في عهد السعديين ص 194 ج 1/ وانظر ايضاً: أحمد بابا التمبكتي: بحوث الندوة التي عقدتها - إيسيسكو - بمناسبة مرور أربعة قرون ونصف على ولادته - مراكش 22 - 25 - صفر 1412 هـ: 30.

أطلب منه كتب نحو ففتش في خزانته فأعطاني كل ما ظفر به منها...» (33).

على أن النصوص تؤكد لنا ما قامت به المكتبات الخاصة في نشر العلم بتمبكت وتسهيل طرقه لأهل العلم، لما تقوم به من تزويدهم بالكتب النادرة والنفيسة دون تفريق بينهم (34).

4 - دور العلماء :

تحظى دور العلماء باحترام كبير عند الحكام، وقداسة لدى العامة، ولذا عدت من أهم المراكز العلمية في تمبكت التي قامت بنشر العلم وتثقيف أهل العلم وطلابه، حيث يجتمعون فيها للأخذ عن الشيوخ. ويؤكد ما قامت به دور العلماء من نشر العلم وتيسير سبله للمتشوقين إليه ما ذكره السعدي في ترجمة محمد بغيع شيخ أحمد بابا فقال :

«...لازم الإقراء ... يقريء من صلاة الصبح أول وقته إلى الضحى الكبير دولا مختلفة، ثم يقوم لبيتته ويصلي الضحى مدة، وربما مشى للقاضي في أمر الناس ويدرس إلى العصر ثم يصليها ويخرج الى موضع آخر يدرس للاصفرار أو قربه، وبعد المغرب يدرس في الجامع الى العشاء ويرجع إلى بيته ...»

هكذا صور لنا السعدي نشاط هذا العالم الجليل في التعليم، والذي كرس حياته في تعليم النشء دون ملل ولا كسل ولا ضجر.

هذه هي أهم المراكز العلمية التي يتم فيها التعليم في مدينة تمبكت وهناك أماكن أخرى أيضا لا يقل دورها في التعليم عما سبق من المراكز مثل الحلقات الدراسية التي تعقد خارج المساجد والتي تجري فيها المناقشات الجدلية والفقهية في أعلى المستويات. وكذلك دور الأحكام التي كثيرا ما يأوي إليها العلماء لإلقاء الدروس لأبناء السلاطين وأسرههم.

(33) نيل الابتهاج ص : 341-342 / السعدي ص 44/ محمد حجي ص : 194 ج 1 / انظر أيضا مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - العدد الحادي عشر - محرم 1315 ص 232.

(34) انظر محمد الغربي ص 556-557/ وانظر أيضا محمد حجي ص 194 ج 1 وانظر أيضا العلاقة بين دولة مالي وبين المغرب الأقصى من خلال المذهب المالكي رسالة لنيل د.د.ع اعداد ماما هاسي تنابو. ص 36-226-324.

إن هذه "المعاهد" أو المراكز أدت رسالتها التعليمية والثقافية خير أداء وكانت النواة الأولى لحركة التعليم في مدينة تمبكت، ثم نمت وترعرعت فأعطت ثمارا ناضجة طيبة، تمثلت في تكوينها لعلماء أجلاء أو نخبة مثقفة - شهد لهم التاريخ بأرقى الأوصاف وأجلها وأناروا الطريق أمام مواطنيهم، ولعبوا دورا هاما في إرساء قواعد الحضارة الإسلامية في المدينة الخالدة أو درة الصحراء بصفة خاصة وأفريقيا بصفة عامة.

طرق التعليم في تمبكت :

اعتمادا على كتب التراجم وكتب التاريخ يمكن أن نصف طرق التعليم في تمبكت على الشكل التالي :

1 - **طريقة تعتمد على الحفظ** : وهذه الطريقة هي السائدة في المغرب على ما ذكره ابن خلدون حين قال : «فأما أهل المغرب، فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء الدراسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب إلى أن يحذف فيه .. وهذا مذهب أهل الامصار بالمغرب ومن تبعهم فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم ..» (35).

وهذه الطريقة هي السائدة في تمبكت وخاصة في المراحل الأولى من التعليم لأن الحفظ هو الركيزة الأساسية لاستظهار كتاب الله وآياته. وتعتبر أهم وسيلة في تحصيل العلم، وما تزال هي الوسيلة السائدة بين الدارسين حتى الآن في مراحل التعليم.

2 - **طريقة تعتمد على التحصيل والتعمق في البحث :**

وتقوم هذه الطريقة باختلاط المواد أثناء التعليم، وهذه الطريقة هي السائدة في المراحل العليا من التعليم، لأن الطالب فيها لا يكتفى بالحفظ فقط بل يجب عليه أن يتعلم كيفية المناقشة والتصرف في النصوص، وبراعة الاستنتاج.

وهي من أهم الطرق وأصعبها، ولهذا تحتاج إلى التآني والتأمل والصبر. ومن تمكن منها سهل عليه تحصيل العلوم وحظي بمفتاحها وأسرارها. وهذه الطريقة هي المعروفة في الأندلس وتونس على ما ذكره ابن خلدون وذلك بقوله : «وأما أهل أفريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ومدارسة قوانين العلوم، وتلقين بعض مسائلها ... وبالجمل فطريقهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس...» (36) لاستقرار كثير من أهل الأندلس بتونس، وعنهم أخذوا هذه الطريقة في التعليم فتربت فيهم ملكة الفهم والتعمق في النصوص. ويمكن أن نستنتج من نصوص ابن خلدون طريقة ثالثة وهي :

3 - طريقة التدرج في التعليم :

وتقوم هذه الطريقة بتعليم الطالب فنا بعد فن، دون أن يشوبه فن آخر، وكتابا بعد كتاب، ومسألة بعد مسألة، ولا ينتقل من درس إلى آخر حتى يفهم الأول فهما جيدا، ثم ينتقل الى آخر، هي طريقة جيدة جدا إذ تعطي الطالب الملكة. وقوة الفهم، والتصرف في النصوص.

وقد نوه العلامة ابن خلدون بهذه الطريقة في التعليم وذكر أنها أكثر فائدة من الطرق الأخرى وذلك بقوله : «أعلم أن تلقين العلم للمتعلمين إنما يكون مفيدا إذا كان على التدرج شيئا فشيئا وقليلًا قليلًا، يلقي عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب. ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال ويراعي في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن ... هذا وجه التعليم المفيد» (37) ثم بعد هذا أكد جمالية هذه الطريقة وحسنها بقوله : «... ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على المتعلم علما معا، فإنه حينئذ قل أن يظفر بواحدة منها لما فيه من تقسيم البال وانصرافه على كل واحدة منهما إلى تفهم الآخر...» (38).

(36) انظر مقدمة ابن خلدون ص 1251 ج 3 / انظر أيضا عمر الجبدي مباحث في المذهب المالكي بالمغرب ص : 173.

(37) مقدمة ابن خلدون ص : 1243 ج 3 تحقيق وتنقيح د. علي عبد الواحد وافي، الطبعة الثالثة مزينة ومنقحة / دار نهضة مصر للطبع والنشر / الفجالة - القاهرة.

(38) نفس المصدر ص : 1245.

ويمكن أن نضيف إلى هذه الطرق طرقاً أخرى يبدو أنها مهمة جداً وقد اعتمدت في التعليم وخاصة في المراحل الأولى منها :

4 - طريقة التلقين أو التريديد :

وهذه الطريقة مهمة جداً للأطفال في الكتابات الذين لا يتقنون القراءة، وإذا يضطر المعلم أن يردد القراءة والطلبة يتبعونه إلى أن يحفظوا الدرس.

5 - طريقة العرض :

وكيفية هذه الطريقة أن يقوم الطالب بقراءة الكتاب على المدرس الذي يقوم بشرح الدرس جملة جملة حتى يفهمه الطلبة، ويبدو أن هذه الطريقة تعتمد خاصة في المرحلة المتوسطة والعليا.

6 - طريقة الشرح :

وكيفيتها : أن يقوم المدرس بقراءة الكتاب أثناء التعليم على الطلبة ويشرح ما به شرحاً مبسطاً، ثم يعلق على المواضيع التي تحتاج إلى التعليق والتنبيه، وهذه الطريقة كالسابقة مع فارق صغير بينهما⁽³⁹⁾. هذه هي بعض ما وصلنا من طرق التدريس من خلال كتب التراجم للعلماء وعلى رأسها "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" لأحمد بابا "وتاريخ السودان" للسعدي، "وفتح الشكور" للبرتلي. هذه كتب فيها بصيص من الوقائع يمكن أن تكون متكاً للباحث يعتمد عليها لاستخلاص المعلومات. على أننا لم نعثر على كتاب يفصل طرق التعليم بكيفية واضحة خلال العصر الذي ندرسه ولذا اكتفينا بالنتف اليسيرة التي جاعتنا من كتب التراجم، ومما كان سائداً في الغرب الإسلامي آنذاك. ومن خلال بعض المعلومات التي توصلنا إليها ظهر لنا أن طرق التعليم في تمبكت لا تختلف عما كانت عليه في الغرب الإسلامي بشكلها العام، وخاصة المغرب الذي يعد المرأة المصقولة لمدينة تمبكت. إذا فلا عجب أن تكون طرق التعليم في مدينة تمبكت والمغرب وجهين لعملة واحدة.

المواد الدراسية :

أضحت مدينة تمبكت مركزا مرموقا في غرب أفريقيا مما جعلها محطة تستقطب العلماء والطلبة من كل لجهات. فازدهرت فيها الحركة العلمية ازدهارا كبيرا بفضل العلماء والطلبة الذين تكاثروا عليها. ووصل التعليم مرحلته الذهبية في القرن التاسع والعاشر الهجريين، فتعددت المواد الدراسية وتنوعت، وتأتي على رأسها المواد الشرعية واللغوية ...

1 - المواد الشرعية :

لما كانت العلوم الشرعية مرتبطة بالقرآن فقد عدها جميع العلماء أعظم «العلوم وأعلاها قدرا وأسمها معنى وأدقها فكرا ... وأحلاها لسانا وأجلها بيانا وأوضحها سبيلا وأصحها دليلا وأفصحها نطقا :

وعلى نفسه فليكن من ضاع عمره ❁ وليس له منها نصيب ولا سهم

فلا ينبغي لعامل أن يستغرق النهار والليل، إلا في غوص بحارها» (40).

ونتيجة لهذا الاهتمام البالغ الذي سيجت به العلوم الدينية وموادها فإن علماء السودان تمسكوا بها وجعلوها في مركز الصدارة في مواد التعليم، ومن أهم موادها التي طغت على التعليم التفسير والقراءات، والحديث ومصطلحه، وأصول الدين، وأصول الفقه، والفرائض، والتوقييت، والتصوف ...

2 - المواد اللغوية والأدبية :

لما كانت المواد اللغوية أو العلوم اللغوية من أهم الوسائل التي تمكن الإنسان من معرفة العلوم الشرعية، والوقوف على مقاصدها، والغوص في عمقها واكتشاف دررها فإن العلماء والطلبة اعتنوا بها كثيرا، بعد عنايتهم بالعلوم الشرعية، فاحتلت موادها المركز الثاني، بعد المواد الشرعية من حيث الكثرة في التعليم، ومن أهم موادها: اللغة والنحو والصرف والبلاغة والعروض والشعر والأدب والخط ..

(40) انظر مقدمة روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني للأوسى ص 2-3.

3 - المواد المجتمعية :

تعتبر العلوم المجتمعية من العلوم التي تمكن الانسان من معرفة أخبار أسلافه وأجداده، والحوادث التاريخية، وخاصة تلك الوقائع والحروب التي وقعت بين المسلمين والكفار في القرون الهجرية الأولى، ولهذا حظيت باهتمام كبير.

وتعد من أهم العلوم التي استوعبها السودانيون استيعاباً جيداً، فانتجوا فيها إنتاجاً رائعاً مستقلاً، وبرعوا فيها أيما براعة. ومن أهم موادها : التاريخ ويشمل السيرة والمغازي والشمائل، ثم التراجم.

وبعد هذه المواد التي أخذت نصيب الأسد في التعليم، هناك مواد أخرى لا تقل عنها أهمية مثل المنطق والطب ...

الكتب الدراسية :

حظيت مدينة تمبكت بشهرة واسعة في السودان الغربي، في ميدان الثقافة والتجارة، فزخرت أسواقها بالكتب والمخطوطات، وكانت تلقى إقبالا كبيرا حتى عدت من أهم السلع وأغلاها وأرباحها تجارة أنذاك، مما وفر للحركة العلمية كثيرا من الكتب النفيسة النادرة، فطفرت الحركة العلمية طفرة هامة إلى الأمام، وخطا التعليم خطاها فازدهر، بفضل وفرة الكتب في المدينة، واستعمال أنفسها في التعليم. وأهم الكتب التي حظيت بالاهتمام في ميدان التعليم : تفسير الجلالين- موطأ مالك- صحيح البخاري- صحيح مسلم- الشفا للقاضي عياض- مدونة سحنون- الرسالة لابن أبي زيد القيرواني- مختصر خليل- المنتقى للباجي شرح الموطأ- مختصر ابن الحاجب- تهذيب البراذعي- تحفة الحكام لابن عاصم المعيار للونشريي- البيان والتحصيل لابن رشد القرطبي- جمع الجوامع في أصول الفقه- الجامع الصغير في الحديث للسيوطي- ألفية العراقي في علوم الحديث مع شرحها- المنتقى والمدونة بشرح المحلي- ألفية ابن مالك في النحو وتلخيصها للسيوطي- الأجرومية وشرحها في النحو- البهجة- المرضية في النحو- جمع الجوامع في العربية- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد المشهور «بالتسهيل» لابن

مالك في النحو - مقامات الحريري، كتاب الجمهرة في اللغة لابن دريد، سيرة ابن هشام- المدخل لابن الحاجب- رجز المغيلي في المنطق وشرحه لأحمد بن أحمد أقيت- وجميع مؤلفات المغيلي- عقائد السنوسي في التوحيد- الخزرجية في العروض بشرح الشريف والدمامي- العشرينات (الفزارية) في المدائح النبوية- ألفية الأثر في الحديث شرح النقابة في الأصول- البيان والتصوف شرح الكواكب الوقادة في الاعتقاد- قطر الندى وبل الصدى في النحو- حكم ابن عطاء الله مع شرح زروق عليه- ونظم أبي مقرر، والهاشمية في التنجيم مع شرحها- ومقدمة الباجوري وشرح المكودي على ألفية ابن مالك- والبسط والتصريف للمكودي- ولامية ابن الجراد السلوي في الجمل- والمرشد المعين لابن عاشر الفاسي- ولامية الزقاق، والمنهج المنتخب في قواعد المذهب للزقاق- والدرر اللوامع في قراءة نافع لابن بري- وإضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة لأحمد المقرئ- والطرفة في مصطلح الحديث لمحمد الفاسي- ونظم أبي مقرر في التوقيت- ونظم المقنع للمرغيشي- وشرح أبي الحسن الصغير على المدونة- والمراصد في التوحيد لمحمد بن العربي الفاسي ومنظومة الزكاة له- ونوازل عبد القادر الفاسي- ونظم العمل للفاسي وشرحه لولده ابن زيد- وتكميل المرام في شرح شواهد ابن هشام لمحمد بن عبد القادر الفاسي (41)...

هذه بعض الكتب التي كانت متداولة في التعليم بمدينة تمبكت، وهي نفس الكتب التي كانت معروفة ومتداولة في الأغلب الأعم في المراكز العلمية الأخرى في العواصم الإسلامية المشهورة مثل فاس، والقيروان والقاهرة وقرطبة. على أننا نستخلص من هذه الكتب غلبة الكتب الدينية واللغوية وكتب المختصرات على التعليم. كما يظهر لنا وجه التشابه في التعليم بالمراكز الإسلامية المختلفة إضافة إلى ما فيها من بيان لمستوى الأساتذة.

(41) للوقوف على هذه الكتب يرجى مراجعة الكتب التالية : نيل الابتهاج بتطريز الديباج ص 88، 89، 93، 94، 92، 341 - 342/ وانظر أيضا عبد الرحمان السعدي ص 37-47/ وانظر أيضا فتح الشكوك ص 11-12 وما بعدها / وانظر أيضا مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية العدد الحادي عشر محرم 1415 هـ ص 257-259 مهدي رزق الله أحمد "التعليم في السودان الغربي ...".

الإجازة :

لما كانت الإجازة بمثابة اعتراف ضمنى من الأستاذ لتلميذه، تبين أن الطالب قد وصل مرحلة الثقة عند شيخه وأنه مؤهل لأن يكون عالماً أو شيخاً فقد اعتنى بها المسلمون منذ وقت مبكر اعتناء كبيراً وهي كما عرفها السيوطي : «إذن من الشيخ يسمح لتلميذه أن يروي عنه مروياته أو مسموعاته أو بعضها منها» (42)، ونظراً لأهمية الإجازة ومكانتها عند المتعلمين والعلماء والحاجة إليها عندما يصل المتعلم مرحلة معينة من الدراسة، فقد أصبحت من الضرورات التي يجب على الطالب الحصول عليها ليعزز موقفه ومستواه كما يرى عمر رضا كحالة حين قال : «وقد أصبحت الإجازة من الضرورات التي يجب على الفقيه الحصول عليها لكي يثبت أنه وصل إلى درجة كافية من العلم تؤهله لتدريس أو رواية ما سمعه أو تلقاه عن شيخه وأستاذه» (43).

وبما أن الإجازة أصبحت من الضرورات التي يجب على الطالب الحصول عليها، عندما يتقن فناً معيناً أو كتباً معينة، فإن علماء تمكبت اعتنوا بها كثيراً وأجازوا طلابهم بها. لكن هذه الإجازات لم تصل إلينا إلا نماذج قليلة منها (44).

(42) التدريب على شرح التقريب للنووي ص 256 / انظر الراجحي : مصطلح الحديث وأثره على الدرس اللغوي ص 54 ط الأولى، دار النهضة العربية بيروت 1983.

(43) عمر رضا كحالة : دراسات اجتماعية في العصور الإسلامية ص 54.

(44) رغم أهمية الإجازة واهتمام علماء السودان بها فإنهم لم يتركوا لنا آثاراً منها إلا نتفا يسيرة وهي كلها مخطوطات في مركز أحمد بابا تحت رقم 1105 وأغلبها مبتورة. وفيها عدة نماذج منها :

- إجازة مبتورة من أولها وهي من محمد بغيغ بن الفا الحاج الأمين سنطاعو حول كتاب البخاري وتتناول سلسلة الشيوخ الذين أخذ عنهم إلى أن انتهى إلى أبي عبد الله الإمام محمد بن اسماعيل البخاري.

- إجازة من أبي عبد الله الفقيه محمد بن الشيخ القاضي محمد بغيغ وجاء فيها : وبعد فقد حدثنا بصحيح البخاري، شيخنا شيخ الإسلام الهمام أبو عبد الله الفقيه القاضي محمد بغيغ بن أبي بكر الونكري. وتتناول سلسلة الشيوخ الذين أخذ عنهم إلى الإمام البخاري.

- إجازة حول كتاب الشفا وهي مخطوط مبتورة، وهما لأبي إسحاق إبراهيم بن أبي العباس بن أحمد بن سعيد بن محمد كراد الفلاتي، وسلسلة الشيوخ تضم مجموعة من فقهاء تمبكت والمغرب وتنتهي إلى مؤلفه القاضي عياض.

انظر العلاقة بين مالي وبين المغرب الأقصى من خلال المذهب المالكي ص 315-317.

وهكذا أضحي نظام الشهادات معروفا في تمبكت فإذا أنس الأستاذ أن أحد طلبته وصل درجة عالية من الاتقان في مادة معينة، أو وصل مرحلة الثقة عنده ورأى أنه مؤهل لأن يكون عالما أو شيخا قام بإجازته اعترافا منه بمؤهلاته العلمية، وتضلعه في العلوم التي أجزى فيها.

وقد تحدث كل من أحمد بابا والسعدي وغيرهما عن الإجازة في هذا العصر فقال أحمد بابا عن والده «وحضرت أنا عليه أشياء عدة وأجازني جميع ما يجوز له وعنه»⁽⁴⁵⁾.

ولكي يتضح لنا الكيفية التي يتم بها إجازة الطالب يجدر بنا أن نثبت قول أحمد بابا في معرض حديثه عن الكيفية التي تمت بها إجازته من طرف أستاذه وشيخه محمد بغيع قال : «لزمته أكثر من عشر سنين فختمت عليه مختصر خليل بقراءته وقراءة غيره ثمان مرات، وختمت عليه الموطأ قراءة فهم، وتسهيل ابن مالك قراءة بحث وتحقيق مرة بثلاث سنين، وأصول السبكي بشرح المحلي ثلاث مرات قراءة تحقيق، وألفية العراقي بشرح مؤلفها، وتلخيص المفتاح بمختصر السعد مرتين فأزيد، وصغرى السنوسي وشرح الجزرية له، وحكم ابن عطاء الله بشرح زروق، ونظم أبي مقرر والهاشمية في التنجيم مع شرحها، ومقدمة التاجوري فيه ورجز المغيلي في المنطق والخزرجية في العروض بشرح الشريف السبتي، وكثيراً من تحفة الحكام لابن عاصم مع شرحها لولده كلها بقراءته، قرأت عليه فرعي ابن الحاجب قراءة بحث جميعه، وحضرته في التوضيح كذلك ... وكثيراً من المنتقى للباجي والمدونة بشرح أبي الحسن الزويلي، وشفا عياض، وقرأت عليه صحيح البخاري ... وكذا صحيح مسلم ودولا من مدخل ابن الحاجب، ودروساً من الرسالة والألفية وغيرها، وفسرت عليه القرآن العزيز ... وسمعت بلفظه جامع المعيار للونشريسي كاملاً .. وباحثته كثيراً في المشكلات وراجعته في المهمات وبالجملة فهو شيخي وأستاذي ... وأجازني بخطه جميع ما يجوز له وعنه»⁽⁴⁶⁾.

(45) انظر نيل الابتهاج ص 93-95 / انظر ايضا - السعدي ص 43.

(46) انظر نيل الابتهاج : أحمد بابا : ص 341-342/ وانظر تاريخ السودان ص 45-46 وانظر ايضا - عبد القادر زيادية - مملكة صنهايا في عهد الأسكيين ص 147.

على أن هذا النص يوضح لنا ما ينبغي أن يكون عليه الطالب في السودان الغربي ليتم إجازته. ونظرا لما يصرح به النص فإننا لا نتخرج من القول بأن الإجازة بعض الأحيان لا تقل عن درجة دكتوراه الدولة في وقتنا الراهن، إن لم تكن أعلى منها درجة.

ويمكن أن نميز بين أنواع الإجازات التي أجاز بها المتخرجون في "معاهد" تمبكت، الأنواع التالية :

1 - إجازة خاصة : تهم فنا أو عدة فنون متحدة الموضوع مثل الإجازات القرآنية والحديثية ... ويراعى فيها الإجازة في قراءة النص، والمعرفة التامة بالقراءات، واختلاف الروايات الحديثية.

2 - إجازة عامة : تشمل فنونا وعلوما متباينة مثل الإجازة التي رأينا في نص أحمد بابا. فهي تقتضي ختم عدة مواد على النحو الذي يؤهل المجاز لرواية العلم، والقدرة على تبليغه للآخرين. وهذا ليس سهلا إلا لمن لزم المجالس العلمية سنوات طويلة (47).

على أن الإجازة نظرا لما يحيط بها من المسؤولية فإن العلماء لم يتساهلوا في إجازة الطلبة، بل لا بد أن يكون المجيز عالما وأن يكون المجاز له من أهل العلم، ولهذا اجتهد الطلبة في طلب العلم وثابروا فيه، فجاء مستواهم فوق ما يتصور، وبذلك استحقوا الإجازة التي تعكس مستوى الطالب دون زيف ولا محاباة.

وبعد ما تحدثنا عن أهم الجوانب في التعليم حان الوقت لنتكلم عن وضعية العلماء والطلبة الذين ساهموا في التعليم وازدهاره وهذا ما سنراه في الفصل التالي.

العلماء والطلبة

لما كان أهل العلم وطلابه يمثلون صفوة المجتمع في الدين الإسلامي فإنهم حظوا باحترام كبير ومركز مرموق في نفوس المجتمع السوداني، حتى إن شأنهم أعظم من شأن الملوك بله من

(47) انظر محمد الغربي : ص 554-556 / وانظر أيضا : عبد القادر زبانية ص 147 وانظر أيضا التربية العربية الإسلامية : المؤسسات والممارسات : تاريخ التعليم الإسلامي في غرب أفريقيا قبل الاستعمار : د. مهدي رزق الله أحمد ص 1297 - 1299.

دونهم. ونتيجة لهذه المكانة فإن السلاطين في السودان الغربي على اختلاف العصور كانوا يستفتونهم ويستشيرونهم في جميع الأمور، وينهجون منهجهم وسلوكهم، ويهتدون بهديهم.

وإلى جانب هذا فقد أعطى السلاطين أهل العلم وطلابه امتيازات كثيرة لا ينافيها أحد، حيث أسقطوا عنهم جميع وظائف السلطنة وغراماتها ولا يطالب أحدهم بشيء من ذلك، ومنعوا عنهم الظلم، ولا يحق لأي حاكم من حكام الأقاليم أن ينظر في شكوى من الشكايات التي ترفع ضد العلماء والفقهاء، بل ذلك للسلطان وحده دون سائر حكام المقاطعات (48).

ونظرا لهذه المكانة التي حظي بها العلماء في المجتمع السوداني - وخاصة مدينة تمبكت التي هي مأوى العلماء - فإنهم تمسكوا بالقيم الأخلاقية الشرعية النبيلة وحرصوا عليها احتراماً للعلم، فعزفوا عن مصاحبة السلاطين وعن تولي الوظائف الرسمية في الدولة، واكتفوا بالتمتع بالزعامة الدينية على أفراد المجتمع السوداني بأسره (49).

ومما يدل على مركز العلماء وما يتمتعون به من الامتيازات داخل المجتمع وخاصة في تمبكت، قول أسكيا داود الذي روي عنه : «لولا العلماء لكانا من الهالكين فجزاهم الله خير الجزاء ...» (50). إن هذه القيم التي تمسك بها العلماء وحرصوا عليها، من الآداب التي حث عليها ووصى بها كل من يريد أن يشتغل بالعلم، حيث روي عن الشافعي قوله : ليس العلم ما حفظ، العلم ما نفع وعلى العالم بدوام السكينة والوقار والخشوع والورع والتواضع والخضوع.

واختصارا يمكن القول بأن مجتمع السودان وخاصة أهل تمبكت تمسكوا بالسنة النبوية الشريفة وعادات السلف الصالح في

(48) انظر حسن أحمد محمود ص 142 وانظر أيضا : مجلة الدارة تاريخ الثقافة الإسلامية والتعليم في السودان الغربي من القرن الرابع الهجري حتى مطلع القرن الثالث عشر : الدكتور أبو بكر اسماعيل ميغا العدد الثاني السنة التاسعة عشر : محرم - صفر ربيع الأول 1414 هـ ص 342.

(49) نفس المجلة ص 234 وانظر أيضا حسن أحمد ص 142.

(50) تاريخ الفتاش ص 113.

توقير العلماء وإكرامهم مما جعل المشتغلين بالعلم يتحلون بصفات حميدة وسيرة حسنة تكاد ترقى بهم إلى مصاف الأولياء، وهذا بشهادة الرحالين الذين زاروا المنطقة في عصرها الذهبي.

ومن تصفح وتتبع ما جاء في تاريخ الفتاش ونيل الابتهاج وتاريخ السودان وغيرها من الكتب وقف على هذه الحقيقة وتأكد منها.

العلماء وأوصافهم :

يعتبر العالم أو المدرس من أهم الركائز التي يعتمد عليها المجتمع في إصلاح نفسه وإصلاح النشء وتربيته. ولهذا يجب أن يتصف بأخلاق حميدة. لأن الأجيال التي يقوم بتربيتها تتأثر به سلبا وإيجابا، وهذا ما أكدته الواقع العلمي.

يقول الدكتور أحمد فؤاد الأهواني متحدثا عن المعلم وأثره في المتعلم : «إن شخصية المعلم لها أثر عظيم في عقول التلاميذ ونفوسهم، وهم في تلك السن الصغيرة يتأثرون بمظهره وشكله وحركاته وسكناته وإشاراته وإيماءاته وألفاظه التي تصدر عنه وسلوكه الذي يبدو منه .. فالصبي يتصل بالمعلم الى جانب صلته بغيره من الصبيان أكثر من الصلة بأبائه وأهله. ومن الطبيعي أن يكون تأثير المعلم في نفوس الصبيان أقوى وأشد وأعمق من تأثير أهله. فهو الذي يقدم إليهم الغذاء العقلي، والديني، وهو الذي يطبعهم على العادات ويثبت فيهم آداب السلوك وما يترتب على ذلك ... ومما يؤيد هذه القولة مارواه الجاحظ من كلام عقبة ابن سفيان لمؤدب أولاده قال : ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بني إصلاح نفسك فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبيح عندهم ما استقبحت» (51).

ونظرا لهذا التأثير القوي الذي يملكه المعلم على التلاميذ فإن العلماء الذين تزعموا الحركة العلمية في مدينة تمبكت، حرصوا على أن يتحلوا بصفات حميدة، وأن يكونوا قدوة لتلاميذهم والمجتمع. ومن تصفح كتب التراجم للعلماء في السودان الغربي بان له ما

كانوا يتحلون به من السكينة والوقار والخشوع والورع والتواضع. ومن الصفات التي وصفوا بها في كتب التراجم - وأخص بالذكر نيل الابتهاج وتاريخ السودان - ما يلي :

التقوى : ليس العلم مجرد حشو الرؤوس وملئها بالمعلومات في نظر الإسلام بل لابد لصاحب العلم أن يتحلى بالقيم الخلقية التي يفرضها العلم على أهله والتي جعلتهم أهلاً لأن يكونوا خلفاء الأنبياء (52).

وأهم الصفات التي يجب أن يتصف بها العالم هي التقوى، ولهذا تحلى بها علماء تمبكت وتمسكوا بها. وقد شهد لهم بهذا كثير من المؤرخين الذين كتبوا عن المنطقة. ونظراً لصفة التقوى والورع التي تميز بها العلماء فقد حظوا باحترام كبير لدى المجتمع.

والتقوى أهم ما يجب أن يميز العالم من غيره ﴿انما يخشى الله من عباده العلماء﴾ وقد وضع الغزالي هذه الصفة من الآداب التي يجب على العالم أن يتصف بها فقال : عليه دوام مراقبة الله تعالى في السر والعلانية والمحافظة على خوفه في جميع حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله.

التواضع : تعد هذه الفضيلة من أهم ما يجب على العالم أن يتصف به لأن التواضع يجعله لا يركب الغرور والتعجرف، ولا يغمط أحداً. وصدق القائل ما تواضع أحد إلا رفعه الله.

وقد عرف علماء تمبكت بالتواضع مما جعلهم يكسبون قلوب الناس وود الطلبة، وأضحت أبوابهم مفتوحة للجميع في أي وقت. وهذا عبد الرحمان السعدي صاحب تاريخ السودان يتحدث عن تواضعهم فيقول في الشيخ أبي عبد الله المعروف بعريان الراس «... وليس له بواب. كل من جاء يدخل بلا استئذان، يزوره الناس من كل فج في كل ساعة...» (53).

واستمع أيضاً إلى أحمد بابا يتحدث عن تواضع شيخه محمد

(52) انظر الرسول والعالم للدكتور يوسف القرضاوي ص 61.

(53) السعدي ص 52.

بغيع فيقول : « ... وأوقفته على بعض تواليقي، فسر به وقرظ عليه بخطه بل كتب عن أشياء من أبحاثي، وسمعتة ينقل بعضا في دروسه لإنصافه وتواضعه وقبوله الحق حيث تعين ... »⁽⁵⁴⁾.

الثبات على الحق : وهذا أيضا من لوازم التقوى الذي يجب أن يصاحب العالم في حياته. وكثيرا ما تردد عند المؤرخين أن العلماء في تمكبت يتحلون بالثبات على الحق ويجاهرون به ولا يخافون في الله لومة لائم.

وهذا السعدي يقول في أحمد بابا « ... وكان وقافا عند الحق ولو كان من أدنى الناس، ولا يداهن الأمراء والسلطين ... »⁽⁵⁵⁾.

أما أحمد بابا فيقول في أحد أفراد أسرته المعروف بالعلم - محمود بن عمر بن محمد أقيت - « لا يخاف في الله لومة لائم، هابته الخلق كلهم السلطان فمن دونه... »⁽⁵⁶⁾.

وهذا أحمد بابا أيضا يصف القاضي بالثبات على الحق بقوله « .. وكان صلبا في الحق لا تأخذه في الله لومة لائم، قوي القلب جدا مقدما في الأمور العظام التي يتوقف فيها، جسورا على السلطان فمن دونه لا يبالى بهم ... »⁽⁵⁷⁾.

العزة : ومن أخلاق العلماء التحلي بالعزة التي هي من أخص فضائل المؤمنين ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ وقد ذكر أحمد بابا عدة نماذج من العلماء الذين يتصفون بعزة النفس مما جعلهم

(54) نفس المصدر ص 46/ وانظر أيضا نيل الابتهاج ص 431-342/ وانظر أيضا عبد القادر زيادية ص 149.

(55) السعدي ص 35.

(56) السعدي ص 38.

(57) السعدي ص : 40.

ومما يذكر في الثبات على الحق دون خوف ما حدث بين الباشا محمود زرقون والقاضي محمود بغيع، حيث قيل إن الباشا لما دخل تمبكت وفعل بالعلماء ما فعل، كتب وثيقة ذكر فيها أنه لم يقم بتعذيب العلماء إلا بعد ما رأى معارضتهم الحكم المغربي، فطلب من القاضي أن يشهد على ذلك ويوقع على الوثيقة وإلا قطع يده. فتبسم القاضي وقال له : قطعك اليد أفضل من كتب شهادة الزور. فالشهادة لا تكون إلا بالعلم والمعاينة. فأنا لم أروم أشهد ولم أعلم ذلك فافعل ما شئت فأصر الباشا عليه، لكن دون جدوى فتركه وطلب منه الدعاء لما رأى فيه من العزة والثبات على الحق.

قدوة للناس ويقول في القاضي العاقب بعد أن ذكر ثباته على الحق وصلابته فيه «... ووقع له معهم وقائع - أي السلاطين - وكانوا يخضعون له ويهابونه ويطاوعونه فيما يريد، وإذا رأى ما يكره، عزل نفسه وسد بابه فيلاطفونه حتى يرجع». (58).

الصبر : الصبر من أهم ما يجب على العالم أن يتصف به، لأنه بدونونه يصعب أن ينجح في مهمته التي هي التدريس وتربية الأجيال. وهذا أحمد بابا يصف أحد أشياخه بقوله «... له صبر عظيم على التعليم أثناء النهار، وعلى إيصال الفائدة للبليد بلا ملل ولا ضجر حتى يمل حاضروه وهو لا يبالي، حتى سمعت بعض أصحابنا يقول : أظن هذا الفقيه شرب ماء زمزم لئلا يمل في الإقراء، تعجبا من صبره ...» (59).

الشعور بالمسؤولية : لما كان الإحساس بالمسؤولية أمام الله من أهم ما يجب أن يتمسك به العالم، لأنه وارث الأنبياء، فإن علماء تمبكت اتصفوا بها قلبا وقالبا، ولهذا ماتوا في نشر العلم الذي وهبهم الله، وجأهروا بالحق كلما رأوا ما يخدش القيم الإسلامية ويتلهمها، وذلك شعورا بالمسؤولية أمام الله.

النزاهة والأمانة العلمية : ومن الصفات التي يجب على العالم أن يتصف بها النزاهة والأمانة العلمية، فلا ينبغي للعالم أن يغمط الناس حقوقهم أو أن يحسداهم في شيء فإذا أخذ شيئا أو نقله، يجب أن يبين ذلك في محله ولهذا قال سلفنا «من بركة القول أن يسند إلى قائله».

وقد عرف علماء تمبكت بهذه الصفة فإذا نقلوا شيئا بينوا مصدره، وإذا استفتوا في شيء يجهلونه صرحوا بذلك حفاظا على النزاهة والأمانة العلمية. فمن يتصور - لولا النزاهة والتواضع - أن ينقل الأستاذ من تلميذه شيئا ثم يصرح به دون حرج ولا حوب، كما فعل محمد بغيع مع تلميذه أحمد بابا، فليس في العلم خجل ولا كبرياء.

(58) السعدي ص 40.

(59) نيل الابتهاج ص : 341-342/ وانظر أيضا السعدي : 44/ عبد القادر زبادية ص : 150.

وقد ذكر الغزالي أن من آداب العالم أن لا يستنكف أن يستفيد مما لا يعلمه ممن دونه منصباً أو نسباً أو سناً، بل يكون حريصاً على الفائدة حيث كانت (60).

العمل بمقتضى العلم : لقد عرف علماء تمبكت بالعمل أو التشبث بهذا المبدأ، كما جاء في كتب التراجم مما جعلهم يتمتعون بشعبية كبيرة لدى الأوساط العامة والخاصة.

واقتران القول بالعمل من أهم أخلاقيات العلم الأصيلة في الإسلام، لأنه ليس من المعقول أن يعلم العالم أو يقول بشيء ثم يخالفه، وهذا يؤدي الى التناقض والنفاق والتشديق بالكلام المزوق والثرثرة بحلو الكلام ومعسوله. وقد وبخ الله الذين يقولون ما لا يفعلون فقال :

﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾.

وقد حذر الرسول ﷺ هذا الصنف من العلماء بقوله : «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أكتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان مالك ؟ ألم تك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى كنت أمر بالمعروف ولا آتية، وأنهى عن المنكر وآتية (61).

الحرص على نشر العلم : إن علماء تمبكت كانوا أروع مثال في السودان الغربي لما قاموا به من نشر العلم بين الناس دون ملل ولا كسل وفي سبيل نشر العلم بين أبناء جلدتهم لا يكادون يضعون عصيهم عن عاتقهم. ولاغرو أن يجدوا في سبيل نشر العلم، لأن من أخلاق العلماء، نشر العلم وتبليغه ونفع الناس به فلا خير في علم يكتُم كما لا خير في مال يكتز، إنما جعل العلم لينشر كما جعل المال لينفق (62).

(60) انظر احياء علوم الدين ج الأول ص 21-33.

(61) رواه أسامة بن زيد بن حارثة وأخرجه البخاري ومسلم. انظر : رياض الصالحين للإمام النووي ص 131 باب تغليظ عقوبة من أمر بمعروف أو نهى عن منكر وخالف قوله فعله.

(62) الرسول والعلم ص 69-70.

الاجتهاد والمثابرة في طلب العلم : لما كان العلم بحرا لا ساحل له فإن علماء تمبكت ما برحوا يرحلون بين العواصم الاسلامية لطلب العلم، رغم ما وصلوه من القمة في العلم مما جعلهم يتضلعون فيما درسوه من العلوم والفنون.

على أن هذه الأوصاف التي تحلى بها العلماء وغيرها من الصفات التي يطول بنا ذكرها إذا أردنا سردها، جعلت العلماء في مدينة تمبكت يحظون باحترام وترحيب كبير لدى المجتمع.

وقد أضيف عليهم الشعب هالة من القداسة ترقى بهم إلى مصاف الأولياء وروي عن أسكيا داود ملك صنغاي العظيم قوله :
لولا العلماء لكنا من الهالكين⁽⁶³⁾.

بل إن أكبر أعداء العلماء سني علي بير اعترف لهم بهذه المكانة رغم بطشه وقتله العلماء حيث قال : «لولا العلماء لا تحلو الدنيا وتطيب ..»⁽⁶⁴⁾ كل هذا الاحترام والود الذي ظفر به العلماء من المجتمع والسلطين جعلهم يلبسون ثياب السكينة والوقار والخشوع والورع والتواضع والخضوع، ليكونوا قدوة للمجتمع.

مكانتهم المجتمعية والعلمية :

كان لطبقة العلماء مركز مرموق في المجتمع السوداني نظرا لتعدد الآيات القرآنية التي تعظم شأنهم وكثرة الأحاديث التي ترفع من قيمتهم ولذا حظوا باحترام كبير لدى العامة والخاصة في مدينة تمبكت.

عندما يتحدث كعت أو أحمد بابا والسعدي عن العلماء في تمبكت، فإنه يخيل للقارئ ان سلطة العلماء أعظم من سلطة الأمراء، نظرا لما يتمتعون به من الامتيازات والتقدير الكبير إلى حد التقديس.

وهذا أسكيا محمد لما وصل إلى الحكم سن قانونا يسقط عن العلماء بموجبه وظائف الدولة وغراماتها ولا يطالب أحدا منهم

(63) كعت من 113.

(64) السعدي من 67.

بشيء من ذلك ومنع عنهم ظلم الحكام. وإذا دخل عنده العلماء قام لهم إجلالا وتقديرا وأجلسهم على سريره. وقد سار على هذا النهج جميع خلفائه في المنطقة حتى أصبح سنة متبعة. وعلاوة على هذا فإن شفاعتهم تقبل في جميع الأحوال لدى السلاطين ومن دونهم. وأصبح كل من احتذى بدار أحد العلماء أمن من عقاب السلطان أو الحاكم.

وقد وصل احترام المجتمع للعلماء حد المبالغة حيث اعتقدوا فيهم الولاية، ونسبوا لهم كرامات ترفعهم إلى مصاف الأنبياء، وأقاموا الأضرحة لمن مات منهم وزاروها⁽⁶⁵⁾.

وما ثورة أهل تمبكت ضد باشوات المغرب إلا تأكيد لهذا. وهذا محمود كعت يصور لنا تمبكت لما أجلى منها العلماء بأسلوب مؤثر تشبه المدينة فيه بإنسان توقفت نبضات قلبه فأدى به إلى الجمود والشلل، قال :

«ولما أجلاهم القوم وارتحلوا صارت تمبكت جسما بلا روح وانعكست أمورها وتغير حالها وتبدلت عوائدها ورجع أسفلها أعلاها وأعلاها أسفلها، وساد أرذالها على عظمائها وباعوا الدين بالدنيا واشتروا الضلالة بالهدى، وعطلت أحكام الشريعة وأميتت السنة وأحييت البدع ...»⁽⁶⁶⁾.

هكذا صور لنا محمود كعت مدينة تمبكت بعد نكبة العلماء فيها وتشريدهم فجعلها مدينة جامدة دون حركة. مما يؤكد أهميتهم في المجتمع كما يصور لنا دور العلماء في الحياة الدينية والحفاظ على طهارة المجتمع من الآفات المختلفة.

أما مستواهم العلمي : فإن من تتبع كتب التراجم وخاصة نيل الابتهاج وتاريخ السودان، انكشف له مستواهم وبيان له ذلك. وقد صرح أغلب المؤرخين أن مستوى علماء تمبكت بلغ درجة عالية لا تقل عن مستوى أقرانهم جهابذة المشرق والمغرب. ومما يؤكد شأنهم

(65) السعدي ص 50/ محمد الغربي ص 514/ مجلة الدارة العدد الثاني ص 234 سنة 1414 هـ.

(66) محمود كعت ص 175.

أن الملك منسا موسى لما حج جاء بفقيه معه ليدرس في تمبكت فلما وصل إلى المدينة فوجيء بمستوى علماء تمبكت فرحل إلى فاس ليكون نفسه جيدا ثم رجع إلى تمبكت مرة أخرى (67).

ويزيد هذا الأمر تأكيدا أن الكتب التي تدرس في تمبكت هي نفس الكتب المتداولة في العواصم الإسلامية الأخرى. مما يؤكد أن مستوى علمائها لا يقل عن مستوى أقرانهم في المراكز الإسلامية الأخرى. وقد رحل كثير منهم إلى المغرب والمشرق ودرسوا في مدارسها وأخذوا عن علمائها فرجعوا إلى تمبكت ليعلموا أبناء جلدتهم.

وما تكاثر الطلبة والعلماء على تمبكت وجامعاتها ليأخذوا من معين علمائها الا تأكيد لما سبق.

ظروف عيشهم :

لقد حظي العلماء بمدينة تمبكت باحترام كبير لدى الأهالي، واحتلوا مركزا مرموقا في المجتمع. وتصدوا لإقراء الناس وتعليمهم، واجتهدوا وثابروا في مهمتهم، وقد تحدثت كثير من المصادر والمراجع عن نشاطهم اليومي، لكنها لم تسعفنا بمعلومات دقيقة تتعلق بظروف عيشهم وكيفية تنظيمها، إلا ما جاء في ثانيا أحاديثها عن العلماء بإشارة عابرة.

ولكن ما يمكن قوله بعد تأمل بعض النصوص التي وصلتنا وفحصها، أن أبواب الرزق والخير كانت واسعة ومتعددة أمام العلماء مما وفر لهم مؤونة العيش ودفع بهم إلى الإقبال على الدرس والإفادة.

ومن أهم النصوص التي يمكن أن نستأنس بها في هذا الصدد ما ذكره الوزان لما زار تمبكت بقوله «... وفي تمبكت عدد كثير من الفقهاء والقضاة والأئمة يدفع اليهم الملك جميعا مرتبا حسنا...» (68).

(67) انظر السعدي ص 51/ وانظر ايضا محمود كعت ص : 113-180/ محمد العربي ص 553/ وانظر ايضا مهدي رزق احمد ص 1293 - 1295 / وانظر ايضا الدارة عدد 2 سنة 1414هـ ص 231-234.

(68) وصف افريقيا ص 167/ انظر ايضا مهدي رزق الله احمد ص 1293-1294.

ويقول محمد كعت وهو يصف مكتب معلم علي تكريا : «... وفيها مدارس معلمي الصبيان ... على ما ذكره الشيخ محمد بن أحمد ذكر أنه حضر مكتب المعلم علي تكريا يوم الأربعاء بعد صلاة الظهر وجعل صبياناه ياتون بخمس ودعات وبعضهم عشر ودعات على عادتهم المسماة الأربع حتى تحصل قدامه ألف وسبعمائة وخمسة وعشرون ودعا...»⁽⁶⁹⁾.

ويصف كعت ما كان يقوم به حاكم بلدة كياك من تقديم الهدايا والصدقات إلى علمائها وطلابها وخاصة في رمضان فذكر أن حاكم هذه البلدة يزور كل سنة علماء وقاضيه وطلابها ويقدم لهم هدايا وصدقات دون حساب، وخاصة في شهر رمضان، وفي ليلة القدر يطبخ لهم طعاما ويحمله على رأسه، ويأمر الطلاب بأكله في هيئة القيام وهو قاعد والقدح فوق رأسه⁽⁷⁰⁾.

ومما نستأنس به أيضا ما ذكره السعدي أن سيدي يحيى التادلسي كان يزاول مهنة التجارة إلى جانب التدريس الذي يقوم به، حتى لا يتكل على أحد⁽⁷¹⁾.

وهذه الأقوال وغيرها كثيرة توحى بأنه ليس هناك مصدر ثابت حول ما يعتمد عليه العلماء للعيش، لكن يمكن أن نلخص وضعهم بما يلي :

1 - أن الدولة تقدم أجورا معينة للعلماء والفقهاء كمرتب شهري أو أسبوعي أو يومي أو سنوي يعتمدون عليه في مؤونة أنفسهم وأسرهم.

2 - أن المدرسين أو العلماء بشكل عام يعتمدون بعض الأحيان على الهبات الملكية أو هبات الحكام والأمراء، فكثيرا ما يقدم السلاطين والحكام والأمراء هبات وهدايا وصدقات للعلماء في مناسبات مختلفة وخاصة في رمضان، الذي يحرص فيه جميع الناس على أن يجودوا عليهم بلا حساب تقربا إلى الله.

(69) محمود كعت من 180 / انظر نفس المصدر من 11، 59، 94، 95، 96، 113، 108، 109.

(70) نفس المصدر من 180.

(71) السعدي من : 50.

3 - أن المدرسين قد يأخذون أجورا من الطلبة يعتمدون عليها لضمان معيشتهم وإن كانت ليست عامة، أعني أن هذه الحالة نادرة.

4 - أن المدرسين بعض الأحيان يزاولون مهنة التجارة إلى جانب التدريس حتى لا يعتمدوا على أحد في عيشهم.

وإلى جانب هذه الطرق، هناك أموال الأوقاف والزكوات التي تعطى للعلماء والطلبة ليتمكنوا من مزاولة مهامهم دون تعب.

كما أن بعضهم ميسوري الحال يصرفون على أنفسهم دون الاعتماد على أحد مما يجعلهم يدرسون دون مقابل بل يقومون به لوجه الله. وإضافة إلى هذا، كثيرا ما يتحمل أغنياء المدينة وأثريائها مصاريف العلماء والطلبة.

هذا ولا يفوتنا أن نشير إلى أن بعضهم يتولون الإمامة والخطابة والقضاء والفتيا مما يوفر لهم مؤونة العيش حيث أن الدولة هي التي تتكلف بمصاريفهم لمزاولتهم هذه المهنة.

وعلى العموم، فالقاضي هو المكلف بهذه المهمة، أعني رواتب العلماء وأجورهم، وتزويدهم بكل ما يحتاجون إليه من الحاجيات لإصلاح أوضاعهم وأوضاع طلابهم⁽⁷²⁾.

الطلبة وظروفهم العامة :

أضحت تمبكت خلال القرن التاسع والعاشر الهجريين محطة ذات شهرة تجارية وعلمية فطار صيتها في الآفاق إذ قصدها العلماء والطلبة من كل الجهات، وأصبحت بذلك كعبة لطلبة العلم وشمسا يسطع نورها على غرب إفريقيا، نظرا لمكانتها العلمية ولما يوفره أهلها لطلبة العلم من يسر مؤن العيش والتقدير والاحترام، حتى إن كعت قال : فتمبكت يومئذ - يوم ازدهارها - لانظير لها في البلدان من بلاد السودان إلى أقصى بلاد المغرب من بلاد مل مروءة وتعفا وصيانة وحفظ العرض ورأفة ورحمة بالمساكين والغرباء وتلطفا بطلبة العلم وإعانتهم ...»⁽⁷³⁾.

(72) انظر عبد القادر زبادية ص 76/ مهدي رزق الله أحمد : التعليم الاسلامي في السودان قبل الاستعمار : التربية العربية الاسلامية المؤسسات والممارسات ص 1293-1294/ انظر أيضا حسن أحمد محمود ص 238-239.

(73) محمود كعت ص : 179.

ونظرا لهذه المكانة التي تميزت بها تمبكت، وتقدير أهلها لطلبة العلم، وتوفيرهم الجو الملائم الذي يغري بالدرس والتحصيل لهم، وإذكاء الطموح والإقدام فيهم، جعل الطلبة يتكاثرون عليها، حتى قيل إن عددهم وصل خمسا وعشرين ألف طالب خلال ذلك العصر.

لقد كانت تمبكت بالنسبة لطلبة العلم شمسا تشع نورا، وأهم جامعة في غرب أفريقيا يشد الطلبة الرحال إليها - بعد أن يكملوا تعليمهم الأولي في مدنهم أو قراهم - لينهلوا من معين جامعاتها وليسمعوا من فحولها وجهابذتها من العلماء.

وقد تميز الطلبة بصفات حسنة جعلتهم يحظون باحترام كبير لدى علماء ومجتمع تمبكت. ومن هذه الصفات الجليلة التي تحلوا بها : الجد والاجتهاد في طلب العلم، مما جعلهم ينقطعون عن كل ما يشغلهم عن العلم من الابتعاد عن الأهل واللهو.

كما عرفوا بالصبر والإخلاص في طلب العلم، ومن صفاتهم أيضا الورع والقناعة والتواضع مما جعلهم يحجمون عن كل ما يخدش كرامتهم أو يتلم سمعتهم.

إضافة إلى هذا كانوا ملمين بجميع العلوم الإسلامية لأنها مرتبطة ببعضها ولذا تصدوا لدراسة أمهات الكتب المختلفة التي لا غنى عنها لأي طالب. وكانوا لا ينتقلون من درس إلى آخر ومن كتاب إلى كتاب أو من فن إلى آخر، إلا بعد فهم الأول. ولهذا كان فهمهم عميقا وواسعا في الكتب التي درسوها.

وحرصا على الفهم والاستيعاب للكتب فإن أحدهم لا يتردد أن يقضي سنوات عديدة في دراسة كتاب واحد دون ملل ولا كسل مما يؤكد لنا أنهم يهتمون بالكيف أكثر من الكم⁽⁷⁴⁾.

وقد انعكست هذه الصفات الإيجابية على حياة الطلبة، حيث أصبحت ميسرة يستضيفهم سراة المدينة ووجهائها، فحفزهم ذلك أكثر على طلب العلم، فرحلوا إلى جهات مختلفة من المراكز الإسلامية الأخرى لينهلوا من الثقافة الإسلامية في منهلها الصافي العذب، وليأخذوها من أفواه أهلها وجهابذتها.

(74) انظر نبيل الابتهاج ص 341-342. انظر أيضا السعدي ص 45-47 وحسن احمد محمود ص 248-249.

هكذا يتبين لنا أن طلبة تمبكت، بل السودان كله كانت لهم هم عالية في طلب العلم وتحصيله، ولا يصرفهم شيء عن تحقيقه، لا المشقة ولا بعد المسافة فضلا عن التقاعس والكسل. فأينما سمعوا بوجود عالم متضلع في فن معين إلا اتجهوا صوبه، مهما لكفهم الأمر.

ولولا هذه العزيمة القوية التي تلهب مشاعرهم وتهز كياناتهم. لا يتصور أن الطلبة يغادرون تمبكت إلى المغرب والحجاز والمشرق لطلب العلم، مع ما في هذه الرحلة من المشقة والصعوبة فضلا عن طول مسافتها ووعورتها وخطورتها (75).

أما ما يتعلق بظروف عيشهم فإنها لا تختلف عن مصادر عيش العلماء في الغالب. فمنهم من يستطيع ذووه الإنفاق عليه، ومنهم من تتكفل الدولة بالنفقة عليهم إلى أن يتخرجوا. وعلى العموم فإن حياتهم ميسرة يستضيفهم سراة المدينة وتجارها ووجهائها، كما أن جامعة سنكرى كانت لها أوقاف تنفق على الطلبة المنقطعين للعلم، إلى جانب ما كانوا يكسبونه من الهدايا والصدقات في المناسبات الدينية والاجتماعية كالتأبين والمآتم والحفلات الأخرى (76).

على أن ما تجب الإشارة إليه أن القاضي هو المكلف بأمر الطلبة من دراسة وعيش ومساعدة إلى أن يكملوا دراساتهم. والقاضي بهذا يشبه وزير التربية والتعليم في عصرنا هذا.

وبعد هذا سنلقي نظرة سريعة عن أهم العلماء الذين كان لهم دور بارز في الحركة العلمية من أسرة أقيت في المحور التالي.

(75) انظر نيل الابتهاج ص 341-342 والسعدي ص 33-50 وفتح الشكور 27، 28، 109.

(76) انظر تاريخ الفتاش ص 59-94-95-96-113-130-108-159-180 وانظر ايضا حسن أحمد

محمود ص 248-249 وعبد القادر زبائدة ص 76 ومهدي رزق الله أحمد 1303-1304.

أهم العلماء الذين أثروا في الحركة العلمية بتمبكت من أسرة أقيت

لقد ساهم في ازدهار الحركة العلمية ونهضتها بتمبكت عدة علماء من السودان والمغرب والمشرق والأندلس، وتفاعلت عوامل كثيرة في توطيدها وتأججها.

لكن أهم العلماء الذين أثروا في الحركة العلمية بتمبكت بالإجماع هم آل أقيت ⁽⁷⁷⁾ الذين اعتبرهم المؤرخون أعظم العناصر التي اعتمدت عليها المدينة في تثقيف أجيالها وتربيتها تربية إسلامية في عدة قرون. وقد اعتبر محمود كعت أفراد هذه الأسرة قلب مجتمع تمبكت النابض الذي إذا توقف، انساب الشلل والجمود في الجسم. وذلك في معرض حديثه عن إجلاء هذه الأسرة عن تمبكت من طرف الغزاة ونفيها إلى مراکش كما تقدم.

على أن النص المذكور سابقا يشخص لنا مكانة هذه الأسرة في تمبكت ودورها في تقويم الحياة العلمية والاجتماعية فيها وتجعل ما قلنا عن هذه الأسرة لا يقبل الشك. وهذه الأسرة معروفة بالعلم والصلاح والجاه في السودان الغربي كله، وينقسم أفراد أسرتها إلى فرعين أو ثلاثة فروع.

1- فرع من جهة الأمهات ويلقبون بأندغ ⁽⁷⁸⁾. وهذه الكلمة من الألفاظ التي تلقب بها العلماء في السودان الغربي في ذلك الوقت وهي تدل على التعظيم والتبجيل.

2 - فرع من جهة الآباء ويلقبون بأقيت.

(77) تعتبر أسرة أقيت من أهم الأسر المعروفة بالعلم والسيادة والجاه كأكبر عن كابر، إليها ينتمي أحمد بابا السوداني العالم الشهير وقد نفى أفراد أسرتها إلى مراکش محمد زرقون بعد نكبة العلماء بتمبكت، وذلك في 25 جمادى الثانية 1002 هـ الموافق 18 مارس 1594م، ويبلغ عددهم سبعين شخصا ولم يرجع إلى تمبكت إلا أحمد بابا.

(78) ولفظ "أندغ" يوازي لفظ سيس في العصر الحالي. لأنه كان يلقب به العلماء والفقهاء، في عهد قريب، ثم بدأ اللفظ يفقد مدلوله الحقيقي رويدا رويدا وخاصة في الثمانينيات وأصبح يطلق حتى على من يدعي أنه انحدر من بيت علم وعز وشرف ولو كان جاهلا مركبا. وأكثر من هذا فإن هذا اللفظ أصبح اسم عائلة لبعض الأسر التي قد يكون لها صلة بالعلم وقد لا تمت إليه بصلة وبهذا فقد اللفظ مدلوله السابق.

3 - فرع من جهة الآباء والأمهات معا، وقد يطلق عليهم أقيت أو أندغ، وقد أشار السعدي الى هذا حين تحدث عن أحد أجداد هذه الأسرة الفقيه أبي عبد الله أندغمحمد فقال :

«ومنه تنسل كثير من شيوخ العلم والصلاح، منهم من جهة الآباء ومنهم من جهة الأمهات ومنهم من جهتهما معا⁽⁷⁹⁾ وذكر أحمد بابا أن هذا الشيخ هو أول من خدم العلم من أجداده.

ويعتبر العلماء الذين خرجوا من شجرة هذه الأسرة أعظم العلماء الذين أثروا في الحركة العلمية والثقافية في معاهد تمبكت وجامعاتها. ويشكلون العنصر الغالب في الحركة الفكرية والثقافية في السودان الغربي كله.

ونظر لهذا فإننا سنكتفي بذكر أسماء بعض أفرادها، الذين لمعت اسماءهم في سماء العلم والمعرفة. على أن هذا لا يعني أن هذه الأسرة هي الوحيدة المعروفة في تمبكت بالعلم بل هناك أسر أخرى لا تقل أهميتها عن هذه في مجال العلم كأسرة بغيغ مثلا -وغيرها- المشهورة بالعلم والجاه في المنطقة، وكلها شاركت في إثراء الحركة العلمية وازدهارها. وسنخصص لهذه الأسر دراسة أخرى، في وقت لاحق إن شاء الله.

بعض علماء تمبكت من أسرة أقيت في سطور^(*) :

1 - الفقيه أبو عبد الله اندغمحمد⁽⁸⁰⁾

هو محمد بن محمد بن عثمان بن محمد بن نوح، معدن العلم والصلاح كان فقيها بارعا، تولى القضاء بتمبكت في أواسط القرن

(79) انظر السعدي ص 28/ وانظر ايضا مجلة جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية العدد الحادي عشر، محرم 1415 هـ : أشهر علماء تمبكت وجنى وغاو وأثرهم في ازدهار الحركة العلمية والثقافية في مدن السودان الغربي في القرون الثامن والتاسع والعاشر الهجرية : الدكتور أبو بكر إسماعيل ميقا ص 214-215.

(*) إذا لم نذكر تاريخ الولادة أو الوفاة للمترجم له فإن ذلك يعني أن الذين ترجموا له لم يذكروا شيئا من ذلك أو قالوا بأنهم لم يقفوا عليه.

(80) انظر السعدي ص 28/ فتح الشكور 112/ مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد 11 ص 215-216.

التاسع والهجري، وذكر أحمد بابا أنه أول من اشتغل بالعلم من أجداده وهو جده من جهة أمه. وتنسل منه شيوخ العلم والصلاح. ولذل لم يجد السعدي ما يصفه به إلا أن يقول «... ومنه تنسل كثير من شيوخ العلم والصلاح ... فهو عالم جليل، قاض المسلمين ...» ولم يذكر لنا الذين تعرضوا لترجمته تاريخ وفاته فضلا عن تاريخ ولادته.

2 - الفقيه عمر بن محمد أقيت (81)

وهو والد جد الشيخ أحمد بابا، ومن الذين اشتغلوا بالعلم مبكرا من هذه الأسرة ويأتي في المرتبة الثانية بعد أندغمحمد الذي هو أول من اشتغل بالعلم من هذه الأسرة. وكان فقيها عالما صالحا، وهو من علماء جامعة سنكري التي ساهمت في تثبيت أركان الحضارة الإسلامية في غرب أفريقيا. وتلمذ على عدة شيوخ منهم الفقيه القاضي مودب الكابري.

ويبدو أن عمر بن محمد كان حيا في العقد الرابع من القرن التاسع الهجري والخامس عشر الميلادي، لأن شيخه مودب الكابري كان حيا في هذه الفترة.

3 - الفقيه المختار النحوي (82)

هو المختار بن أندغمحمد لقب بالنحوي لتضلعه في النحو، ووصفه السعدي بأنه عالم بكل فن من فنون العلم. وجمع كثيرا من العلوم حتى صار موسوعة وبحرا في العلم. وقد عاصر هو وابوه سيدي يحيى التادلسي. ورحل إلى ولاته أثناء فتنة سني علي الخارجي فوجد الإمام الزموري فيها فأجازه كتاب الشفا لعياض. توفي رحمه الله في أواخر العام الثاني والعشرين بعد التسعمائة.

4 - الفقيه عبد الرحمان بن أندغمحمد (83)

هو الفقيه عبد الرحمان بن أندغمحمد أخو الفقيه المختار

(81) نفس المصدر ص 28/ مجلة جامعة الإمام ابن سعود الإسلامية العدد الحادي عشر ص 216.

(82) نفس المصدر ص 28-29/ فتح الشكور ص 113/ مجلة جامعة الإمام ابن سعود الإسلامية ص 216.

(83) نفس المصدر ص 29 / فتح الشكور ص 28 / مجلة جامعة الإمام ابن سعود العدد 11 ص 216-217.

النحوي وهو عالم تقي حليم جليل، عظيم النفع ثاقب النظر متخصص في الفقه المالكي وكان من العلماء المتخصصين في تدريس كتاب التهذيب للبرذاعي.

5 - أبو العباس (84)

هو أحمد بن بري بن أحمد بن أندغمحمد العالم التقي الزاهد الورع المتواضع أخذ عن جماعة كثيرة من علماء سنكرى.

وهو من العلماء الذين تألفت نجومهم في سماء العلم في عهد ازدهار الثقافة الإسلامية بتمبكت.

6 - أبو عبد الله بن المختار النحوي (85)

هو أبو عبد الله أندغمحمد بن الفقيه المختار النحوي بن أندغمحمد (الجد الأعظم) وهو عالم تقي ورع زاهد متواضع، وقد برع في العلوم العربية حتى أصبح من الذين يشار إليهم بالبنان.

تخصص في كثير من أمهات الكتب المالكية وخاصة كتاب الشفا لعياض الذي يقوم بتدريسه وسرده في شهر رمضان بمسجد سنكرى. وكان مادحا لرسول الله ﷺ، تولى إمامة مسجد سنكرى بعدما عجز القاضي محمود عن هذه المهمة لشيخوخته.

7 - أبو عبد الله محمد (86)

هو أبو عبد الله محمد بن الإمام أندغمحمد بن الفقيه المختار النحوي، وهو عالم جليل، مادح لرسول الله ﷺ. تولى تدريس الشفا للقاضي عياض وسرده في جامعة سنكرى بعد وفاة والده وبقي في هذا الأمر حتى وافته المنية.

8 - الفقيه المختار بن محمد (87)

هو الفقيه القاضي المختار محمد بن الفقيه المختار النحوي بن أندغمحمد، هذا حذو أسلافه في التدريس ومدح الرسول ﷺ. كان

(84) السعدي ص 29 / فتح الشكور ص 28 / مجلة جامعة الإمام ص 217.

(85) السعدي ص 29 / مجلة جامعة الإمام ص 217.

(86) السعدي ص 29 / مجلة جامعة الإمام بن سعود ص 217-218.

(87) السعدي ص 29 / مجلة جامعة الإمام بن سعود ص 217-218 / فتح الشكور ص 107.

ينفق أموالا طائلة في المولد النبوي ومدح الرسول ويضطرب له غاية الطرب. وقد حج وزار المدينة والتقى بعدة وجوه من العلماء اللامعين منهم الشيخ محمد البكري العالم المصري المشهور المتوفى سنة 1578م.

9 - الفقيه محمد سن (88)

هو الفقيه سن بن الفقيه المختار، وهو من ذرية أندغمحمد الكبير من جهة الأب والأم، وهو عالم كبير، ماحل لرسول الله ﷺ، بذل في حبه النفس والنفس إلى أن توفي. وكان خيرا فاضلا تقيا زاهدا ورعا، ذا مروءة ووقار.

10 - أبو العباس أحمد بن أندغمحمد (89)

هو العباس الفقيه أحمد بن أندغمحمد بن محمود بن الفقيه أندغمحمد الكبير وهو عالم ذكي فطن، برع في الفقه واللغة والأشعار، وغير ذلك من فنون العلم. وقد ترك بصماته على الحركة العلمية بتمبكت إبان ازدهارها.

11 - الفقيه سيدي أحمد (90)

هو الفقيه سيدي أحمد بن أندغمحمد بن أحمد أندغمحمد التنبكتي وهو عالم عظيم وقاض بارع ونحوي ولغوي وأصولي وبلاغي له شرح حسن على الأجرومية سماه "فتح القيوم" فيه فوائد جليلة وفروع وتتمات يتشوق لها عالي الهمة، كما ذكر البرتلي في "فتح الشكور"، الشيء الذي يدل على طول باعه في العربية وكثرة اطلاعه على دقائقها.

12 - القاضي محمد بن أندغمحمد (91)

هو القاضي محمد بن أندغمحمد بن أحمد بن بري بن أحمد بن القاضي أندغمحمد الجد. كان عالما، فاضلا، فقيها محدثا

(88) السعدي ص 29-30.

(89) السعدي ص 30/ فتح الشكور ص 38/ مجلة الجامعة ص 218.

(90) فتح الشكور ص : 39.

(91) فتح الشكور ص 109.

قاضيا. أخذ عن الشيخ بركات بن محمد بن عبد الرحمان الخطاب المكي، وأخذ عن صحيح مسلم وأجازه فيه. تولى القضاء بتمبكت سنة 1016 هـ وتوفي بها سنة 1020 هجرية.

13 - عبد الله بن الفقيه أحمد بري⁽⁹²⁾

هو أبو محمد عبد الله بن الفقيه أحمد بري بن أحمد بن الفقيه أندغمحمد الكبير وهو من ذريته من جهة الأب والأم. وهو عالم عظيم متواضع معروف في زمنه وذاع صيته في كثير من المدن. كان مفتيا ونحويا ولغويا، واشتهر في معرفة علوم القرآن وتوثيق الأسانيد. ومن أحفاده شيوخ الإسلام الثلاثة في السودان الغربي والأئمة الاعلام، الفقيه عبد الله والفقيه الحاج أحمد والفقيه محمود أبناء الفقيه عمر بن محمد آقيت.

14 - الفقيه عبد الله بن عمر⁽⁹³⁾

هو الفقيه عبد الله بن عمر بن محمد آقيت بن عمر بن علي بن يحيى الصنهاجي المسوفي، شقيق جد أحمد بابا، وهو عالم حافظ ورع تقي وزاهد قام بالتدريس بتمبكت وولاتا، ونشر الثقافة الإسلامية فيهما. ولد سنة 866، وتوفي سنة 929 هجرية.

15 - أحمد عمر⁽⁹⁴⁾

هو أحمد بن محمد آقيت بن عمر بن علي يحيى التكروري، التنبكتي - جد أحمد بابا - وعرف بالحاج أحمد، أكبر الإخوة الثلاثة المعروفين بالعلم والدين في السودان الغربي.

وهو عالم جليل معروف بالخير والفضل، وكان محافظا على السنة والمروءة ويتحلى بالورع والتقوى والصيانة والتحري. وكان محبا للنبي ﷺ وملازما لقراءة قصائد مدحه وكتاب الشفاء. وكان فقيها لغويا بارعا وعروضا محصلا، اعتنى بالعلم ونسخ الكتب. رحل إلى المشرق والتقى بجهازة العلماء والفقهاء وأخذ عنهم أمثال

(92) السعدي ص 30/ مجلة جامعة الإمام عدد 11 ص 217-219.

(93) نيل الابتهاج ص 161/ السعدي 38/ مجلة الجامعة ص 219.

(94) نيل الابتهاج ص 88-89/ السعدي 31-37-38/ فتح الشكور ص 27-28/ مجلة الجامعة ص 219-230.

جلال الدين السيوطي والشيخ خالد الوقاد الأزهري وغيرهما، وقضى عمره في طلب العلم حتى أصبح عالم عصره وقاضيه. وقد أخذ عنه عدة علماء من السودان الغربي. وهو من الذين نفوا إلى مراكش أثناء النكبة، وتوفي بها سنة 943 هجرية.

16 - أحمد بن أحمد بن عمر (95)

هو أحمد بن أحمد بن عمر أقيت بن عمر بن علي يحيى التنبكتي وهو والد أحمد بابا الشهير. قال عنه «كان علامة فهامة، ذكيا دراكًا، محصلا متفنا محدثا أصوليا بيانيا منطقيا ...» اخذ عن كثير من العلماء، رحل إلى المشرق لطلب العلم، فحج وزار المدينة ولقى بمصر بعض مشاهير العلماء في ذلك الوقت، منهم الشيخ الناصر اللقاني والشيخ يوسف الازميوطي وجمال الدين ابن الشيخ زكريا وغيرهم كثير. كما لقي بالحجاز جماعة من كبار العلماء منهم أمين الدين الميوني وابن حجر المكي وغيرهم كثير أجازهم بعضهم ثم رجع إلى بلاده وجلس للتدريس والتأليف والإفادة. وله مؤلفات وشروح وحواشي كثيرة توفي سنة 991 هجرية.

17 - القاضي محمود أقيت (96)

هو شيخ الإسلام أبو البركات والثناء والمحاسن الفقيه القاضي محمود بن عمر بن محمد أقيت بن يحيى التنبكتي. وهو عال التكرور وصالحها ومدرسها وفقهها وإمامها بلا مدافع كما قال أحمد بابا. كان من عباد الله الصالحين العارفين ذا تثبت عظيم في الأمور. وقد اشتهر علمه وصلاحه وعدله ونزاهته في القضاء. ذاع صيته في السودان شرقا وغربا، لا يخاف في الله لومة لائم. رحل إلى المشرق وحج، والتقى بمجموعة من العلماء العباقرة أمثال ابراهيم المقدس والشيخ زكريا، والقلقشندي واللقانيين، وغيرهم من علماء مصر، واشتهر عندهم بالعلم والصلاح. عاد إلى بلاده ولازم الإقراء والافتاء والقضاء. وقد تخرج على يديه خلق كثير تركوا أثرا واضحا في الحركة العلمية بتمبكت، توفي سنة 955 هجرية.

(95) نيل الابتهاج ص : 93/ السعدي ص : 42-43/ فتح الشكور ص : 29-30 / الحركة الفكرية في

المغرب في السعديين محمد حجي ج الثاني ص 235-246/ المجلة ص : 220-221

(96) نيل الابتهاج ص : 234-344 / السعدي ص 38-39 / مجلة الجامعة ص : 222.

18 - القاضي محمد بن محمود (97)

هو القاضي محمد بن محمود بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي الصنهاجي قاضي تمبكت. كان فقيها فهاما دراكا، ثاقب الذهن، من عقلاء الناس ودهاتهم كما قال أحمد بابا. تولى القضاء بعد وفاة والده. وكان ذا جاه، وفهم عميق، ونظر ثاقب في العلوم الإسلامية. وله تعليق على رجز المغيلي في المنطق. وقد تتلمذ عليه كثير من علماء المنطقة وتوفي سنة 973 هـ.

19 - القاضي العاقب بن محمود (98)

هو القاضي العاقب بن محمود بن عمر بن محمد أقيت التنبكتي قال عنه أحمد بابا «كان مسددا في أحكامه، صلبا في الحق ثبثا في لا تأخذه في الله لومة لائم، قوي القلب مقداما في الأمور العظام التي يتوقف فيها غيره، جسورا على السلطان فمن بونه، وقع له وقائع مع السلاطين وكانوا يخضعون له ويطاعونه في كل ما أراد، إذا رأى ما يكره عزل نفسه عن القضاء وسد بابه...».

أخذ العلم عن أبيه وعمه، ثم رحل إلى المشرق وحج ولقي الشيخ الناصر اللقاني وأبا الحسن البكري وغيرهما. وقد أجازة اللقاني في جميع ما يجوز له وعنه. وأجاز هو بدوره أحمد بابا، وكتب له بخطه. وذكر السعدي أنه في فترة توليته القضاء ملأ السودان عدلا. ولا يعرف له مثيل ولا نظير في اتباع الحق وإقامته. توفي رحمه الله سنة 991 هجرية.

20 - القاضي عمر بن محمود (99)

هو القاضي عمر بن محمود بن عمر بن محمد أقيت. وهو عالم جليل، ثاقب الذهن، عميق الفهم مصيب في فراسته وهو رئيس علماء السودان وقد بلغ درجة من العلم، حتى قال بعض معاصريه : لو عاصر ابن عبد السلام بتونس لاستحق أن يكون مفتيا فيها، مما يدل علو كعبه ودقة نظره وموسوعيته في الفقه المالكي. أخذ عن

(97) نيل الابتهاج ص 340/ السعدي ص 40/ مجلة الجامعة ص : 223.

(98) نيل الابتهاج ص 288/ السعدي ص 34، 40، 41/ نفس المجلة والصفحة.

(99) السعدي ص : 34/ فتح الشكور ص 178/ مجلة الجامعة ص 224.

أبيه، وبرع في علم الحديث والسير والتاريخ وأيام الناس. تولى القضاء في تمبكت بعد إلحاح شديد من الحاج أسكيا محمد. وكان من العلماء الذين نفوا إلى مراكش بعد نكبة تمبكت، وتوفي بها سنة 1003 هجرية، بعد أن قضى سنوات حافلة بالعطاء.

21 - أحمد بن محمد بن سعيد (100)

هو أحمد بن محمد بن سعيد سبط الفقيه محمود بن عمر. وهو فقيه عالم، كان متضلعا في الفقه المالكي. ومن الحفاظ النادرين بتمبكت وهو من المدرسين المشهورين الذين ذاع صيتهم بتمبكت. أخذ العلم عن جده لأمه الشيخ محمود بن عمر أقيت، درس عليه الرسالة ومختصر خليل، وأخذ عن غيره المختصر والمدونة. جلس للتدريس إلى حين وفاته، وقد انتفع به خلق كثير. وتوفي رحمه الله سنة 976 هجرية بعد أن قضى عدة سنوات في تكوين الأجيال وتربية النشء وله عدة شروح وحواش ومؤلفات. ومنها حاشيته على خليل اعتمد فيها على البيان والتحصيل.

22 - أبو بكر بن أحمد (101)

هو أبو بكر بن أحمد بن محمد أقيت المولود بتمبكت عام 392 هـ، وعرف بباكر بير. وهو عالم مشهور ومدرس بارع في التدريس ومنهجيته. وهو من العلماء الذين ينفقون على الطلبة لكي يتفرغوا للتدريس. وصفه السعدي بأنه «كان خيرا صيتا ورعا زاهدا تقيا أواما وليا مباركا معروف الصلاح ظاهر الزهد والورع والبر، متين الدين كثير الصدقة والعطاء ...» حج وزار المدينة وطاف في الشرق ولقى عدة علماء، ثم رجع إلى تمبكت، وبعد فترة رحل إلى المدينة مع أسرته إلى أن توفي رحمه الله في مدينة الرسول ﷺ، وقد ذكر أحمد بابا براعة هذا العالم في التدريس فذكر أنه عالم أوتي مفتاح البيان والبلاغة، مما جعله يستفيد منه في فترة وجيزة دون تعب. وقال إنه «عظيم الجاه، ما رأيت قط مثله ولا من يقرب منه في حاله. له توافيف لطاف في التصوف وغيره» وتوفي رحمه الله سنة 991 هجرية.

(100) نيل الابتهاج : ص 95/ السعدي ص 43/ فتح الشكور ص 38/ مجلة الجامعة ص 224-225

(101) نيل الابتهاج ص : 102/ السعدي ص : 32، 41، 42 / مجلة الجامعة ص : 225.

23 - الفقيه عبد الله بن محمود (102)

هو عبد الله بن محمود بن عمر بن محمد آقيت، عالم فقيه تقي زاهد ورع. وهو من المدرسين البارزين بجامعة تمبكت. وصفه السعدي بأنه «عالم فقيه، مدرس، متقل من الدنيا مع ما بسط الله تعالى له فيها من الرزق حتى كاد أن لا يعرف نهايته».

24 - الفقيه أبو زيد (103)

هو أبو زيد عبد الرحمان بن محمود بن عمر بن محمد آقيت الشيخ الصالح الناسك، العابد الزاهد الورع الواعظ كما وصفه السعدي. كان فقيها، عالما، معرضا عن الدنيا بكليته، وهو من الأشخاص الذين لا تخطئ فراستهم. ويحكى أنه ذكر لطلبته يوما بعد صلاة الظهر، ما سيحدث في تمبكت بعد سنوات، وكان يشير إلى غزو الباشاوات لتمبكت، وقد وقع فعلا، وذلك بقوله «... بالله لتسمعن في هذا العام ما لم تسمعنوا بمثله قط ولترون فيه ما لم تروا بمثله قط».

25 - الفقيه أبو بكر بن أحمد بير (104)

هو الفقيه العالم أبو بكر بن أحمد بير بن الفقيه محمود بن عمر بن محمد آقيت، كان فقيها عالما، فاضلا خيرا تقي صالحا. وقد شهد له أكثر من واحد بالعلم والصلاح والورع والتقوى.

26 - الفقيه أبو حفص عمر بن الحاج أحمد (105)

هو أبو حفص عمر بن الحاج أحمد بن عمر بن محمد آقيت، وهو عالم فقيه نحوي لغوي مباح لرسول الله ﷺ صباحا ومساء. وكان يسرد كتاب الشفاء للقاضي عياض في رمضان بمسجد سنكري وقد عرف بين العامة والخاصة بالعلم والصلاح وحسن الخلق والطبع والظرافة. كان بين الناس سراجا مشرقا بنور العلم

(102) السعدي ص : 34.

(103) السعدي ص 34.

(104) السعدي ص : 34.

(105) نفس المصدر ص : 35.

والعقل يضيء في كل مكان. كان - رحمه الله - يصل الرحم كثيرا حتى أنه لا يفتأ يتفقد أحوال أقربائه ليلا ونهارا ويزورهم عند مرضهم. وهو من الذين نفوا إلى مراكش وتوفي بها سنة 1006 هـ.

27 - العلامة أبو العباس أحمد بابا (106)

هو العلامة أحمد بابا بن الفقيه أحمد بن الحاج أحمد بن عمر بن محمد آقيت (ولد سنة 963 هـ) سلطان العلماء بالسودان الغربي، وعالمه بلا منازع، فقد ذاع صيته في الشرق والغرب، وأصبح يشار إليه بالبنان.

كان رحمه الله موسوعيا بارعا في كثير من العلوم الإسلامية والعربية فهو فقيه أصولي، بلاغي لغوي، نحوي، محدث، مؤرخ، مقاصدي ... وكان فطنا ثاقب الذهن عالي الكعب في العلوم والفنون، وقافا عند الحق ولو كان من أدنى الناس، ولا يداهن فيه الأمراء والسلاطين. وقد أفحم المنصور الذهبي في قصة طريفة بينهما. ولما نفى إلى مراكش تقاطر عليه الطلاب في كل مكان يأخذون منه العلم. وقد أشار إلى هذا بقوله : «ولما خرجنا من المحنة طلبوا مني الإقراء فجلست بجامع الشرفاء بمراكش من أنواه جوامعها، أقريء مختصر خليل قراءة بحث وتحقيق ونقل وتوجيه، وكذا تسهيل ابن مالك وألفية الحديث للعراقي وتحفة الحكام لابن عاصم وجمع الجوامع للسبكي، وحكم ابن عطاء الله والجامع الصغير للسيوطي ... والصحيحين ... وغيرها ... وازدحم علي الخلق وأعيان طلبتها، ولازمونني بل قرأ علي قضاتها كقاضي الجماعة بفاس ... وكذا قاضي مكناسة ... ومفتي مراكش ... وغيرهم. وأفتيت فيها لفظا وكتبا بحيث لا توجه إلا إلي ... واشتهر اسمي في البلاد من سوس الأقصى إلى بجاية الجزائر وغيرها ...» (107).

(106) نفس المصدر ص : 34 / فتح الشكور ص : 178.

(107) السعدي ص 35/ فتح الشكور 34-35 / وانظر أيضا : مورخو الشرفاء ليفي برفنصال تعريب عبد القادر الخلافي ص 176-179 / انظر أيضا : أحمد بابا التمبكتي : بمناسبة مرور أربعة قرون ونصف على ولادته. ندوة عقدتها إيسيسكو 22-25/2/1412 هـ الموافق 2-5/9/1991م بمراكش.

ونكتفي بهذه المقولة التي صدرت من سلطان العلماء نفسه في بيان مكانته العلمية.

ومهما حاولنا أن نظهر مكانته العلمية فإن طبيعة هذا البحث لا تسمح لنا بذلك في هذه العجالة. وباختصار فقد قضى حياته في نشر العلم والمعرفة، وترك عدة مؤلفات أوصلها بعض الدارسين إلى ستة وخمسين مؤلفاً. وأهمها نيل الابتهاج بتطريز الديباج"، ويعتبر هذا الكتاب من أهم المصادر في تراجم العلماء. وتوفي رحمه الله سنة 1036 هجرية بتمبكت (108).

(108) الفقيه احمد بابا وبوره في كتابه التاريخ الافريقي د. يوسف فضل حسن ص 31 وانظر أيضا: مجلة كلية الآداب "امبراطورية صنغاي" ابراهيم طرفان ص : 70.

أخيراً:

وبعد هذه المعلومات المتواضعة، والقليلة التي سردناها في هذا البحث لبيان بعض الأدوار التي لعبتها هذه المدينة في تاريخ الحركة العلمية في السودان الغربي.

نرى أنها كانت بمثابة كعبة يحج إليها العلماء والطلبة في كافة أرجاء غرب إفريقيا، وشمسا تسطع نورها على السودان الغربي كله كما أنها تمثل لؤلؤة من تلك القلادة التي تتزين بها الحضارة الإسلامية فيما وراء الصحراء الكبرى.

ففي سمائها سطعت نجوم جامعات أنارت الطريق لحركة علمية منقطعة النظير وفرت للمجتمع التمبكتي وغرب أفريقيا كافة نتاجا علميا ضخما، وتراثا إسلاميا خالدا، وفحولا من العلماء.

ومن هذه الجامعات أيضا انطلقت صيحات لا إله إلا الله محمد رسول الله. وشعار ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ إلى أرجاء غرب أفريقيا، ووصل تأثيرها إلى كل بقعة حل بها الدين في ربوع السودان الغربي وما يليها، فتوافد إليها أجناس مختلفة من كل لون، ومن كل حذب وصوب وعملوا معا بانسجام على تنشيط حركة فكرية في المدينة الخالدة صهرت في بوتقتها أخيرا جميع الطاقات، فذاعت شهرتها في الآفاق.

لكن هذه السمعة التي حظيت بها تمبكت جعلتها فريسة ولقمة سائغة بن أيدي الغزاة الذين لم تتوقف هجماتهم المتكررة على تمبكت بين الفينة والأخرى حتى سقطت في أيدي الاستعمار؛ مما عصف بكثير من أصول الحضارة الإسلامية التي تأصلت جذورها بالمدينة الخالدة وأحاط بكثير من روائعنا وذخائرنا الفكرية.

ويضاف إلى هذا ما صنعه الاستعمار من سرقة كثير من مخطوطاتها النادرة وطمس بعض حقائق الآثار الإسلامية فيها، مما أدى إلى تأزم وضعيتها وجعلها تعيش في سبات عميق الأمر الذي جعلها تتخلف عن مثيلاتها في العالم الإسلامي وتصبح في ذيل القافلة ومؤخرة الركب.

هكذا أصبحت المدينة الخالدة التي كانت تمثل رمز الحضارة الإسلامية في سماء غرب أفريقيا ورمز العلم والمعرفة فيها. فيوم ازدهارها أبت نفوس شعرائها وعلمائها وفقائها إلا أن يعبروا عما يختلج في صدورهم من مشاعر تجاه هذه المدينة.

فهذا عبد الرحمان السعدي، وهو من أبناء تمبكت المشاهير تأمل أمر هذه المدينة، وما تزخر به من العلماء والتجار والأدباء وما يحل بأهلها من الخير والبركة فقال :

« مادنستها عبادة الأوثان ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمان، مأوى العلماء والعابدين ومألف الأولياء والزاهدين وملتقى الفلك والسيار ... ».

أما أحمد بابا الذي يعد من جهاذة علمائها وأحد أبنائها الذي ارتبط اسمه باسمها، والذي يعتبر من أعظم ما تفخر به تمبكت قديما وحديثا، لما نفي الى مراكش، لم يجد لمدينته بديلا، مع ما تمتاز به مراكش من العلم والمعرفة. فترك لنا أبياتا خالدة يعبر فيها عن حنينه وشوقه إلى مدينته الغالية وإلى أهله وأصدقائه وأحبائه الذين فرق بينه وبينهم الزمان.

ومن هذه الأبيات المرتجلة قوله :

أيا قاصدا كاغوا فمع نحو بلدتي * وزمزم لهم باسمي وبلغ أحبتي
سلاما عطيرا من غريب وشائق * إلى وطن الأحباب رهطى وجيرتي
فوا أسفا منهم وحزني عليهم * فيارب فارحمهم بواسع رحمتي

أما محمود كعت وهو أحد فقهاء ومؤرخيها لما رأى ما آلت إليه بلده الغالية من فوضى واضطراب بعد ازدهار أبي إلا أن يخلد في صفحاته ذكريات خالدة، ومن هذه الذكريات قوله :

« فتمبكت يومئذ لا نظير لها في البلدان من بلاد السودان إلى أقصى بلاد المغرب من بلاد مل مروءة وتعففا وصيانة وحفظ العرض ورأفة بالمساكين والغرباء وتلطفا بطلبة العلم وإعانتهم ... وكانت تمبكت قبل نزول هذه المحلة -أي النكبة- في غاية الحسن والجمال،

وإقامة الدين وإحياء السنة. بها ما شئت من دين ودنيا وجيران تنافسوا في المعالي....».

وعلى العموم تظل «غرائب تمبكت وعجائبها - يوم ازدهارها - لا تدخل تحت حصر ولا يحيط بها حفظ حافظ...» كما قال ابنها البار محمود كعت.

على أن هذه القصة الجميلة التي حكيناها عن هذه المدينة، وصيحات علمائها ومؤرخيها وأدبائها التي ما فتئت تتعالى، في وصفها لم يبق منها في تاريخ تمبكت سوى أصداء الماضي. حيث لم تعد تمبكت تلك المدينة التي كانت في غاية الحسن والجمال وإقامة الدين ولم يعد أهلها ذلك المجتمع الذي عرف بتحمسه لإقامة السنة، والتنافس في العلم والمعالي. بل لم تعد الثقافة الإسلامية التي ارتبط مجد المدينة بها تعني شيئاً لمجتمع تمبكت، نظراً لما قام به الاستعمار من عرقلة الطريق أمام المثقفين ثقافة إسلامية، ومن صرف الشباب عن هذه الثقافة بكل وسيلة.

ودع عنك كتابات المستشرقين التي ما فتئت تشوه صورة الإسلام وأصوله وثقافته في نظر الأجيال الصاعدة.

ويضاف إلى هذا ما صنعت نوائب الدهر التي زلزلت المنطقة، حتى أصبح أهلها لا يفكرون إلا في لقمة العيش مما فتح باب المنطقة على مصراعيه للتبشير الصليبي الهدام ومكائده.

على أننا قبل الختام نوجه دعوتنا إلى كل مسلم غيور أن يساعدنا على استعادة هذه المدينة مكانتها وذلك بإنشاء مدارس إسلامية، وإرسال مدرسين ودعاة أكفاء إليها ليبعثوا نور الحضارة الإسلامية فيها من جديد، وينيروا لأبنائها الطريق الصحيح ويصحوا لهم المفاهيم.

وما أحوجنا ونحن أحفاد أولئك الأفاضل الذين رفعوا شأن المدينة بعلمهم، أن نقوم بهذه المهمة الملقاة على عاتقنا ونخرج آثارهم وتراثهم العلمي إلى الوجود، فكثير من مؤلفاتهم ما زالت حبيسة في المخطوطات المبتورة وفي رفوف المكتبات القديمة التي يهددها التلف، مما أدى ويؤدي إلى ضياع كثير من تراث أسلافنا.

三子

